الفصل الثاني

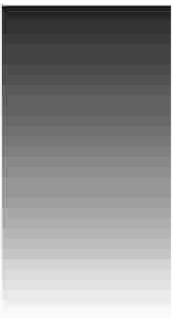

مصطلح

الإنسان

تمهيد

يعتبر مصطلح "الإنسان" -كما ورد في كليات رسائل النور- من أهم المفاتيح المفهومية، ومن أكبر المسالك الضرورية؛ للدخول إلى العالم الفكري للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ومنظومته الفلسفية/القرآنية؛ ذلك أنه بنى تأملاته للكون والحياة والمصير على التأمل في الذات الإنسانية، إذ انطلق في فهمه للكون من ذاته كنوع، متدرجا عبر مسالكها إلى آفاق السماوات والأرض، متفكرا في كل شيء، من خلال ما يجده في نفسه من عجز وفقر، وما يجده في هذه العوالم من امتداد لا يتناهى. ثم بعد ذلك يدخل إلى قضية "الخلق" التي هي سر الوجود، ولغز الكون، ومعضلة الفلسفات. يدخلها طبعا من باب القرآن الكريم، ولكن "مشاهدا" لا قارئا وحسب. ذلك أن الدخول إلى القرآن من باب "المشاهدة" يعني مطالعة الكون الكبير، والنظر إلى أسراره معاينة.

من هنا كان النورسي ينظر إلى الإنسان. ومن هنا استقى مفهومه الكوني له. نعم إن الإنسان في فكر بديع الزمان ليس مخلوقا عاديا وحسب، ولا هو حتى مخلوق أرضي وحسب، بل هو أبعد من ذلك وأعظم. إنه مخلوق كوني. أي إن الماهية الوجودية للإنسان هي ماهية كونية كبرى. بمعنى أن فهم هذا الكائن لا يمكن تناوله، ولا استيعابه بحصره في مركز إقامته: الأرض. وإنما الواجب ربط وجوده بوجود الكون كله! ذلك أن أول باب من أبواب الدخول إلى الماهية الإنسانية هو باب العلة الخلقية، أو الوجودية. بمعنى أن نتساءل: ما علة وجود الإنسان أصلا؟ من هنا

يمكن أن يتحدد مجال الوجود الإنساني. ومن هنا يمكن فهم الماهية الكونية للإنسان.

فإذا كان القرآن الكريم الذي هو المصدر الأول والأساس لمنظومة النورسي الفكرية؛ يحدثنا عن قضية "الاستخلاف" الرباني للإنسان قبل قصة خلقه؛ فلا يكون خلق آدم عليه السلام؛ إلا من بعد ما قدرت له وظيفته الكونية؛ ذلك أن قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)؛ واقع قبل خلق آدم عليه السلام؛ لأن القرآن يقص علينا أن هذا الإخبار كان قبل ذلك، كما في سورة "ص". قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢)، وقال ﷻ في بيان علة الخلق: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(هود:٧). إن معنى ذلك عند الأستاذ سعيد النورسي إذن؛ أن الوجود الإنساني كله، حتى في أدق تفاصيله، لا يمكن فهمه إلاّ من خلال هذا المنظور الكوني للإنسان! وهذا هو الجديد الذي يمكن أن نزعم أن بديع الزمان قد تقدم به كمفتاح لفهم: ما الإنسان؟ على سبيل التفسير التدبري للقرآن الكريم، والقراءة الكونية لآياته. ومن هنا أيضا يمكن القول: إن بديع الزمان قد جاء بمفهوم قرآني للإنسان. فبنى عليه -تقريبا- كل نظرياته النورية للكون والحياة والمصير.

إن الدارس لمصطلح "الإنسان" لدى بديع الزمان يجد أنه بإزاء "مفهوم كوني". هذا المفهوم الذي يمكن إجماله في حدّ كلي، نركّبه -من خلال استقراء نصوص كليات رسائل النور- تركيبا مبنيا على استقصاء كل الأبعاد الوجودية لـ"الإنسان"، كما يراها بديع الزمان. فلندخل إذن إلى هذا

العالم المفهومي العجيب، من خلال ما دأبنا عليه من منهجية مصطلحية، وذلك كما يلي:

أولا: التعريف:

أ- في اللغة:

يرجع أصل استعمال مادة "أنس" في اللغة إلى معنى الظهور، والاقتراب، والألفة، وعدم التوحش. والراجح أن عنه تفرعت سائر المعاني لهذه المادة اللغوية. وذلك ما ذهب إليه أغلب المعاجم. قال ابن فارس: "الهمزة والنون والسين: أصل واحد، وهو ظهور الشيء. وكل شيء خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس خلاف الجن؛ وسموا بذلك لظهورهم. يقال: آنست الشيء: إذا رأيته. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْدًا﴾. ويقال: آنست الشيءَ: إذا سمعته، وهذا مستعار من الأول. قال الحارث:

آنَسَتْ نَبأَةً وأفزعها القُنّـ ـاصُ عَصْرًا وقد دنا الإمساءُ

والأُنس: أُنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه"[1] إلاّ أن مصطلح "الإنسان" قد اختلف في أصله: أهو من الأنس أم من النسيان؟ وأما لفظ "الإنس" فالأكثر على أنه من "الأنس" بمعنى ضد التوحش. وعليه حمل كثير من اللغويين معنى "الإنسان" أيضا. إلا أن آخرين أرجعه إلى "نسي" لا "أنس". قال الراغب الأصفهاني: "الإنس خلاف الجن. والإنس خلاف النفور. والإنسي منسوب إلى الإنس. يقال ذلك لمن كثر أُنْسُه، ولكل ما يُؤْنَسُ به. (...) والإنسان: قيل سمي بذلك؛ لأنه خُلِقَ خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض؛ ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع؛ من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه. وقيل سمي بذلك

(١) مقاييس اللغة، مادة: "أ ن س".

لأنه يأنس بكل ما يألفه. وقيل: هو إفْعِلانٌ، وأصله إنْسِيانٌ سمي بذلك؛ لأنه عُهِد إليه فنسي".[1]

فأما هذا المعنى الأخير فقد روي عن ابن عباس. قال صاحب اللسان: "وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: إنما سمي الإنسان إنسانا؛ لأنه عُهِد إليه فنسي (...) وقيل للإنس إنسٌ؛ لأنهم يؤنسون أي يبصَرون، كما قيل للجن جنٌ؛ لأنهم لا يؤنسون، أي لا يبصَرون".[2]

وأيا كان الأصل في المفهوم اللغوي "للإنسان"؛ فإنه يجمع هذه المعاني كلها، من حيث هو مخلوق اجتماعي، يعيش في مجتمع من جنسه، ويقوم بعضه ببعض، ويألف ويؤلف، وينسى ويتذكر. ومن هنا جاءت الرسالات السماوية للإنسان، تترى؛ قصد تذكيره دائما بحقيقته الوجودية، ووظيفته الكونية.

ب- في الاصطلاح:

وأما في اصطلاح بديع الزمان؛ فـ"الإنسان" هو:

- الإنسان: هو ثمرة شجرة الخلق، والفهرست الكوني الجامع، العاكس الأكمل للأسماء الحسنى، الساعي لتحقيق رغبة البقاء الكامنة في فطرته، المشاهد عبودية الكائنات باستخلافه في الأرض؛ عبادةً كليةً لله الواحد الأحد.

وبيان ذلك مفصلا هو كما يلي:

بـ١- الإنسان ثمرة لشجرة الخلق:

إن الإنسان -كمفهوم وجودي- عند الأستاذ النورسي، قائم من حيث

---

(١) مفردات القرآن، مادة: "أ ن س".

(٢) لسان العرب، مادة: "أ ن س".

ماهيته على رؤية نورسية قرآنية. فهي نورسية؛ لأنها من محض تأمله التفكري، ونظره التدبري، وهي قرآنية؛ لأن بديع الزمان لم يكن ينظر في تأملاته للكون إلاّ من خلال القرآن الكريم. فهي إذن رؤية تندرج ضمن ما يمكن تسميته "بالتفسير المفهومي للقرآن الكريم". إن كون "الإنسان ثمرة لشجرة الخلق" راجع إلى أن هذا المخلوق الآدمي هو الغاية الخلقية لهذا الكون، من حيث بناؤه القرآني؛ إذ خلق الله ﷻ الأرض والسماوات على صورة مهيأة لاستضافة هذا الساكن الفريد، حمّال الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). فحملُ هذه الأمانة إذن؛ هو حدث كوني مرتبط -في سياقه القرآني- بالأرض والجبال والسماوات. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الكون كله بخلائقه جميعاً مهيأ لخدمة الإنسان، ولم يهيأ الإنسان بفطرته لخدمة أحد، وإنما هيء للبحث عن المعرفة القدسية، سعياً للترقي في مدارج الكمال، بالتعرف على رب الكون، والاستغراق في عبادته ﷻ.

قال بديع الزمان: "إن الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل"،[1] وقال أيضا: "إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة، وأجمعها وألطفها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية، وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا".[2]

وليس معنى هذا أنه يقصد -بمفهوم المخالفة- أن الخلق الإلهي فيه نقص في بعض أنواعه، أو في بعض مظاهره كلا، وحاش لله! وإنما

(١) الكلمات، ص ٤١٨.

(٢) الكلمات، ص ٢٠٤.

المقصود أن الإرادة الربانية قضت أن يكون الإنسان غاية خلقية في الكون. بمعنى أنه أعظم مظهر من مظاهر التجلي الرباني لأسمائه الحسنى؛ وذلك على سبيل الاستناد والخضوع لله الواحد القهار! ومن هنا جاز أن يكون بعض مخلوقاته أكمل من بعض، من حيث كمال الخضوع والعبادة، لا من حيث الصنعة والإتقان، فكل خلق الله كامل الصنعة متقن، طبعا حسب درجة وجوده، وحسب ما قصد من خلقه. وإنما المراد كمال الإظهار للعبودية. تماما كما أن القرآن الكريم تعظم بعض سوره، أو بعض آيه على بعض؛ لاختصاص ذلك البعض بكمالات خاصة من القصد الإلهي، والتضمن لاسم الله الأعظم مثلا. فالإنسان أيضا مظهر بخلقته وفطرته لاسم الله الأعظم، ودال على وحدانية الخالق ﷻ. وهو كما قال النورسي في الشعاعات، في سياق حديثه عن الإنسان؛ شارحا لهذا المعنى: "بل هو الآية الحاملة لتجليات الاسم الأعظم في ذلك القرآن الكوني، كآية الكرسي في القرآن الكريم! وهو أكرم ضيف في قصر الكون، وهو أنشط موظف مأذون له بالتصرف في سَكَنَة ذلك القصر".[1]

ثم إن الضعف الذي وصف به الإنسان من حيث هو "ثمرة"؛ إنما هو بالمعنى الإيجابي، لا السلبي. فالضعف البشري هو باب العبودية لله القوي العظيم. ولذلك كان الإنسان أحوج ما يكون لربه في كل لحظة وحين. وإن يغفل عن الاستناد إليه يكن إذن من الغاوين! ولهذا كانت الحياة البشرية عبادة لله من بدايتها حتى نهايتها! ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩) ومن هنا نال ما نال من تقدير وتكريم، فكان ثمرة الخلق بمعنى أن هذا الكون كله إنما هيء له؛ حتى يعيش فيه ويموت، ثم

(١) الشعاعات، ص ٢٧٢.

يموت الكون كله بموته، ثم يعاد خلقه بإعادة خلقه! أي إن إعادة خلق الكون إنما هي من أجل إعادة خلق الإنسان مرة أخرى! وقد سبق قوله ﷻ: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢) وقال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤) وذلك لنصب الموازين والحساب لليوم الآخر، اليوم الأبدي الذي أبد ليخلد من خلد في الجنة، ويخلد من خلد في النار والعياذ بالله!

وقد يتأمل المرء كل هذا فيصاب بالدهشة: كيف يكون كل هذا الأمر الكوني العظيم الذي تتبدل به الأرض غير الأرض والسماوات؛ من أجل هذا المخلوق البشري الضعيف؟ ذلك ما أجاب عنه النورسي رحمه الله بقوله: "لا يخطرن على بال أحد، ويقول: ما أهمية هذا الإنسان الصغير وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة، وتفتح دنيا أخرى لمحاسبته على أعماله؟ لأن هذا الإنسان، هو سيد الموجودات، رغم أنه صغير جدا؛ لما يملك من فطرة جامعة شاملة. فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة، ومظهرها. لذا فإن له أهمية عظمى".[1]

إن تفكر بديع الزمان في الكون، وتدبره للقرآن، أوصلاه إلى نتيجة عظيمة، هي ظاهرة من نصوص القرآن، لكنها كثيرا ما تخفى علينا؛ هي: أن الإنسان مخدوم في هذا الكون غير خادم! ألا ترى أن كل شيء مما في الأرض أو في السماء إلاّ وله علاقة خادمة لوجود هذا الإنسان بصورة مباشرة، أو غير مباشرة؟ بدءاً من الملائكة إلى أدق الخلق من الحشرات

(١) الكلمات، ص ٦٣-٦٤.

والجراثيم. فالملائكة هي المكلفة من لدن رب العالمين -بعد السجود لآدم عليه السلام- بنفخ الروح في الجنين، وبحفظه قبل ولادته وبعد ولادته، وبكتابة عمله، وبقبض روحه...إلخ. ثم كل شيء من الحيوانات بعد والحشرات والجراثيم مسخرات في إنتاج طعامه وشرابه وتهييء رزقه، والحفاظ على توازن بيئته، ومحيطه الفضائي...إلخ. ولا يضره شيء من ذلك -بعد إذن الله- إلا بسبب سوء الاستعمال! ثم انظر إليه هو، أي إلى هذا الإنسان! إنه لا يخدم أحدا! وإن فعل فلأجل مصلحته الخاصة، كما يقوم الراعي برعي غنمه من أجل لحومها، وجلودها، وأصوافها؛ لرزقه! ومن هنا فإن وظيفة الإنسان في الأرض إنما كانت هي التفرغ لعبادة الله الواحد القهار.

قال رحمه الله: "إن للإنسان قيمة عالية؛ بدليل أن السماوات والأرض مسخرة لاستفادته، وكذا أن له أهمية عظيمة؛ بدليل أن الله لم يخلق الإنسان للخلق، بل خلق الخلق له! وأن له عند خالقه لموقعا؛ بدليل أن الله تعالى لم يوجد العالم لذاته، بل أوجده للبشر، وأوجد البشر لعبادته؛ فأنتج أن الإنسان مستثنى وممتاز، لا كالحيوانات".[1] بل إن النورسي وجد -بتدبره وتفكره- أن الإنسان "علة" ربانية حكيمة لتفسير وجود الكون كله! ألم يقل ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١-٢٢)، وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(هود:٧) وهذا نص في أن

(١) إشارات الإعجاز، ص ٢٢٢.

الخلق الكوني؛ إنما هو ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، أي من أجل الوجود البشري، وحكمته الابتلائية والاستخلافية!

ذلك ما ترجمه النورسي في تفسيره التدبري، إذ قال: "نعم، يصح أن يقال: إن "الحي القيوم" سبحانه قد أراد وجود الإنسان في هذا الكون، فخلق الكون لأجله، وذلك لأن الإنسان يمكنه أن يدرك جميع الأسماء الإلهية الحسنى ويتذوقها؛ بما أودع الله فيه من مزايا وخصائص جامعة.

فهو يدرك -مثلا- كثيرا من معاني تلك الأسماء؛ بما يتذوق من لذائذ الأرزاق المنهمرة عليه. بينما لا يبلغ الملائكة إلى إدراك تلك الأسماء بتلك الأذواق الرزقية".[1] وأبين منه قوله: "لأجل وسعة روح الإنسان، وتبسط عقله، وانبساط استعداده (...) جعل القرآن الكريم جهة استفادة البشر، التي هي غاية فذة من ألوف ألوف غايات السماء والأرض؛ في منزلة العلة الغائية، كأنها هي العلة بالنظر إلى الإنسان. أي إن الإنسان يستفيد من الأرض عرصة لبيته، والسماء سقفا له، والنجوم قناديل، والنباتات ذخائر، فحق لكل فرد أن يقول: شمسي، وسمائي، وأرضي. فتأمل وعقلك معك!".[2]

بـ٢- الإنسان هو الفهرست الكوني الجامع:

ومن اللازم لما سبق، من كون الإنسان "ثمرة لشجرة الخلق" أن يكون أيضا "فهرستا" لهذا الكون الفسيح. إذ الثمرة هي مجمع كل الخصائص الوراثية الجينية للشجرة بأكملها. تحتوي في نواتها على كل العناصر المكونة لمادة الشجرة، بدءا بالوريقات الأولى حتى الجذوع والأغصان ثم

(١) اللمعات، ص ٥٩٣.

(٢) إشارات الإعجاز، ص ١٦٢.

الأزهار والثمار! كل ذلك مضمن بصورة مركزة جدا في نواة الثمرة، التي إن غرستها كانت منها بعد ذلك شجرة أخرى. فبهذا المثال الاستعاري يقدم لنا بديع الزمان صورة الإنسان كمخلوق مركزي في هذا الكون الفسيح. ذلك "أن الماهية الإنسانية مظهر جامع لجميع تجليات الأسماء المتجلية في جميع الكائنات" كما قال.[1]

إننا هنا عند هذا المعنى لا نظل ننظر إلى الإنسان كضيف عابر في هذا الكون وحسب، يولد إلى الدنيا ليعيش أياما ثم يموت ويفنى إلى الأبد. إن منطق الثمرة يرفض هذا؛ لأن الثمرة ببساطة تتضمن نواة هي سر الاستمرار والخلود. إن الإنسان بهذا المعنى جامع لمادة الكون، أو بتعبير النورسي "فهرس" أو "فهرست" له! وإذا كان كذلك كان الإنسان هو مركز الكون، ومرجع المخلوقات كلها في الدلالة على الله رب الكون. أليس الإنسان هو النواة؟ إذن لابد أن يكون جامعا. فذلك معنى كونه فهرستا أي جامعا لكل الخصائص الموجودة في هذا الكون، من الملائكية إلى الشيطانية، ومن النباتية إلى الترابية.. إلخ. وهو ما ركزه بديع الزمان في قولته الحكيمة التي تكررت في رسائله في أكثر من مناسبة، إذ تواتر استعماله لمصطلح "الفهرست" أو "الفهرس"؛ للدلالة على جامعية الإنسان، وشموليته الخلقية. قال رحمه الله: "كما أن الإنسان عالَم صغير، كذلك العالم إنسان كبير. فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير، وفهرسه. فالنماذج المصغرة في الإنسان لا بد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة".[2]

---

(١) اللمعات، ص ٥٠٩.

(٢) اللمعات، ص ١٢٧.

وقال أيضا: "إن الله ﷻ خلق الإنسان، وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم"،[1] ثم قال أيضا: "إن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه، وكونه حيوانا من الحيوانات؛ ينطوي على روح غال، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة. مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرستة للأنواع والعوالم".[2] ونحو هذا المعنى عنده كثير، حتى إنه ليشكل بذاته كلية كبرى، من كليات رسائل النور! ولو أردت أن تعرف مثالا لذلك فانظر إلى ذاتك: هذا الوعي العميق لديك بالحياة، وهذه الرغبات الشديدة، من حب للخير، وحب للخلود، وحب للتنعم، وحب للسيطرة، وحب للامتلاك، وحب لكل الشهوات، وأيضا هذا النزوع الكامن في فطرتك إلى الكمال، وإلى الترقي في مدارج المعرفة القدسية سيرا إلى الله رب العالمين، والرغبة في منافسة الكائنات في الحصول على الأقربية العظمى والخلود في الجنة...إلخ. كل هذا ونحوه يدل على أن الإنسان يحتوي على طاقات هائلة تتجاوز جسمه الضعيف قطعا. إنه إذن تفجير للطاقات الفهرستية الكامنة فيه. هذه الطاقات الموصولة بالكون كله على سبيل الخلقة، والموصولة بالله رب العالمين، من جهة أخرى على سبيل الاستناد، والانتساب الإيماني العظيم؛[3] ومن هنا استحق أن يوصف بأنه فهرست للكون أو -بتعبير آخر لبديع الزمان- "خريطة" له، تقود في النهاية إلى رب العالمين. قال رحمه الله بنوع من التفصيل التمثيلي: "لما كان الإنسان خلاصة جامعة لهذا الكون؛ فإن قلبه بمثابة خريطة معنوية

---

(١) إشارات الإعجاز، ص ٢٦.

(٢) إشارات الإعجاز، ص ١٤٩.

(٣) انظر مصطلح "الانتساب الإيماني" من هذا الكتاب.

لآلاف العوالم! إذ كما أن دماغ الإنسان -الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي- وهو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون، ويكشف عنها، ويبثها أيضا؛ فإن قلب الإنسان كذلك هو محور لما في الكون من حقائق لا تحد، ومظهر لها، بل هو نواتها".[1]

وهذا هو السر في قدرة الإنسان على التدرج في مدارج المعرفة القدسية، التي هي أشرف المعارف؛ سيرا إلى الله ﷻ، من حيث هو رب العالمين، أي إن ذلك يقتضي من الإنسان أن يستوعب بوجدانه كل الكائنات، باعتبارها مأمورة مثله بالسير؛ فينخرط معها في رحلة جماعية كونية، يكون فيها هو الدلال على الله، بما قد تجلى في خلقته وفطرته من خصائص التعبد الجامع، خضوعا شاملا لله الواحد الأحد. فكان أقدر هذه الكائنات جمعاء على التقاط الإشارات الكونية، والمخاطبات التعبدية، بما له من غوص في التفكر والتدبر، وبما له من خصوص في تعلم "الأسماء كلها"، هكذا على سبيل العموم والشمول! كما سبق بيانه من تفسير النورسي لقوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣٠). فكان أن تعلم ثم عَلّم! وهذا مهم جدا، إذ العملية التعليمية عنده مركبة من تأثر وتأثير، فقد تعلم ثم علّم: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣٢).

٣- الإنسان هو العاكس الأكمل للأسماء الحسنى:

ثم إنه من اللازم عن كونه "فهرستا" أن يكون مظهرا لكل أسماء الله

(١) المكتوبات، ص ٥٧١.

الحسنى. ذلك أنه إذا كان الكون كله مجالا لعكس أنوار الأسماء الحسنى، من حيث إنه مخلوق ومرتبط في كينونته واستمراره بهذه الأسماء، التي هي صفات الربوبية. وإنما معنى الربوبية المالكية المطلقة للكون والحياة والمصير؛ فإن الإنسان -وهو فهرستة الكون- أكثر إظهارا، وأكمل إبرازا لهذه الأسماء، من حيث مخلوقيته. فشدة ضعف الإنسان وشدة حاجته، كلاهما دال على شدة ارتباطه بربه كرها أو كرها وطوعا معا. بمعنى أن الإنسان -ولو كان كافرا- لا يمكنه الاستغناء عن مدد الله، واستناده القدري له، فهو الذي خلقه ويطعمه، ويسقيه، وإذا مرض فهو الذي يشفيه. أما مسألة اعتراف الإنسان بذلك فمسألة أخرى. وإنما المهم هنا أن الإنسان لا يقوم بنفسه، بل هو أضعف الخلق عن أن يقوم بنفسه! فهو في هذا الكون كالطفل الذي لا يقوم في كل أمره إلا بأمه! وليس ذلك لأنه أقل المخلوقات شأنا، كلا! وإنما هو لتنوع حاجاته، وكثرة مطالبه ورغائبه، التي لا تنتهي، كلما حصل على شيء طمع في غيره. أما غيره من المخلوقات فحاجاته المعيشية، والحياتية قليلة بالمقارنة معه، وكذلك رغائبه وآماله المعنوية، كما في حبه الفطري للعلم والمعرفة، وما ركب في خلقته من حب الاطلاع، بدءا بعلوم الأشياء حتى المعرفة القدسية العليا. كل ذلك رغبات غيره فيها محدودة. أما هو فلا حد لرغباته وأشواقه.

إن "المرآتية" الإنسانية بكمالها، إذ تعكس أنوار الأسماء الحسنى؛ تظهر جمالها الرباني، من خلال السير التعبدي لله الواحد الأحد. وذلك عبر مراتب ثلاث، استقرأها بديع الزمان، فبين أوجهها بقوله: "إن الإنسان هو نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يشعره الحق ﷻ جميع أسمائه الحسنى المتجلية، بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة (...)

إن الإنسان مرآة عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، وهو مرآة لها من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: كما أن الظلام سبب لرؤية النور (...) فالإنسان أيضا يُعَرّف بضعفه وعجزه، وبفقره وحاجاته، وبنقصه وقصوره؛ قدرةَ القدير ذي الجلال، وقوته العظيمة، وغناه المطلق، ورحمته الواسعة؛ فيكون الإنسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجليلة (...)

أما الوجه الثاني: فهو أن الإنسان مرآة لتجليات الأسماء الحسنى؛ إذ أن ما وهب من نماذج جزئية من "العلم، والقدرة، والبصر، والسمع، والتملك، والحاكمية" وأمثالها من الصفات الجزئية؛ يصبح مرآة عاكسة يعرف منها الصفات المطلقة لله ﷻ (...)

الوجه الثالث: لكون الإنسان مرآة عاكسة للأسماء الحسنى، فهو أيضا مرآة عاكسة لها من حيث نقوشها الظاهرة عليه".[1] أي الظاهرة على سيمائه الملمحية، الدالة على بديع صنع الله، وجمال خلقه، ﷻ.

وبهذه المعاني جميعا كان الإنسان "العاكسَ الأكمل للأسماء الحسنى"، بمعنى الأكثر تذوقا لها، واستفادة من أنوارها. في حال الضعف والقوة، وفي حال الفقر والغنى، وفي حال اليسر والعسر...إلخ. إن الحاجة الإنسانية الجبلّية، والمطلقة، ثم الذوقية العالية التي جُبل عليها، حسا ومعنى؛ كل ذلك مكّنه -بصورة متميزة- على الإدراك الوجداني للجمال في النعم والأرزاق؛ فجاءت عباداته تحمل كل هذه الأشواق، وكل هذه المواجيد الحرى. وما كان له أن يجد ذلك؛ لولا أنه ذاق -من خلال

(١) الكلمات، ص ٨٢٨-٨٢٩.

حر الجوع والفقر- جمال الرزق والغنى، وما كان له أيضا أن يذوق ما ذاق؛ لولا تعلقه الفطري بأنوار الأسماء الحسنى! وما أبدع بديع الزمان إذ يقول: "إن أشد الأحياء حاجة إلى الرزق وإلى أنواعه هو الإنسان. فالحق ﷻ قد خلق هذا الإنسان مرآة جامعة لجميع أسمائه الحسنى، وأبدعه معجزة دالة على قدرته المطلقة، فهو يملك أجهزة يتمكن بها من تثمين، وتقدير، جميع مدخرات خزائن رحمته الواسعة، ومعرفتها. وخلقه على صورة خليفة الأرض، الذي يملك من الأجهزة الحساسة؛ ما يتمكن بها من قياس أدق دقائق تجليات الأسماء الحسنى؛ فلأجل كل هذا فقد أودع سبحانه في هذا الإنسان فاقة لا حد لها، وجعله محتاجا إلى أنواع لا تحد من الرزق المادي والمعنوي".[1]

هنا يجتمع النقيض مع نقيضه -بلا تناف- في خلق الله العجيب؛ ليشكل بذلك آية من آيات القدرة الإلهية، والعظمة الربانية، وشعاعا باهرا من أشعة الخالقية، فكلما كان الإنسان أضعف؛ كان أشد صفاء في عكس النور الاسمي، وأبهى جمالا في أداء مواجيد الشوق والمحبة؛ حتى إنه في مرضه، وجوعه، وفاقته؛ هو -كما في رغبته وحبه لكل شيء- أكثر عكسا، وأشد إبرازا لبراهين الأسماء الربانية في الكون. ومن هنا كانت قوة الإنسان في ضعفه، وكان كماله في نقصه. لأن الإحساس بالنقص والضعف؛ هو الذي يعمق في النفس الشعور بالذلة، والرغبة في الخضوع والاستسلام. وعندما يكون ذلك في طريق السير إلى الله الرزاق ذي القوة المتين؛ يكون كمالا في التعبد، وجمالا في السير. ومن هنا كان قول الرسول ﷺ: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ"؛[2] وذلك لأن الدعاء هو التعبير الأصدق

(١) المكتوبات، ص ٤٧٣.

(٢) رواه أحمد والأربعة وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم الحديث: ٣٤٠٧.

عن الحاجة، والفقر، والنقص، وكل معاني الضعف البشري، التي هي أساس الخضوع لله الواحد القهار. وذلك مقصود بديع الزمان من "عكس الإنسان للأسماء الحسنى"، قال: "إن الله سبحانه يجعل ما ألبسه الإنسانَ من لباس الوجود دليلا على صنعته المبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج "موديل" يفصل عليه لباس الوجود، يبدله ويقصه ويغيره، مبينا بهذا التصرف تجليات مختلفة لأسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسم "الشافي" المرض، فإن اسم "الرزاق" أيضا يقتضي الجوع".[1]

وبهذا المنطق يصير الضعف الإنساني صفة إيجابية، ونعمة إلهية على الإنسان لا تقدر بثمن! وفي هذا الإطار تُفْهَم، وتُتَذَوق كل مدارج الإيمان، ومنازل الإحسان، في سير العبد إلى ربه، تائبا، ومتوكلا، وفقيرا، وعاجزا، وشاكرا، ومشتاقا، ومحبا. يقول النورسي في إيضاح هذا المعنى بصورة مفصلة: "إن الله سبحانه قد أدرج في الإنسان عجزا لا حد له، وفقرا لا نهاية له؛ إظهارا لقدرته المطلقة، وإبرازا لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بما لا يعد من الجهات؛ إظهارا للنقوش الكثيرة لأسمائه الحسنى! فأبدعه سبحانه على صورة ماكنة عجيبة تحتوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائذها، ومهمتها وثوابها وجزاؤها. فكأن الأسماء الإلهية المتجلية في العالم، الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرها أيضا في هذا الإنسان، الذي هو عالم أصغر. وكما أن فيه من أمور نافعة كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها، تدفعه إلى الشكر، وتسوق تلك الماكنة إلى القيام بوظائفها من عدة جهات، حتى يغدو الإنسان ماكنة شكر!

---

(١) اللمعات، ص ١٢.

كذلك الأمر في المصائب والأمراض والآلام، وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق الدواليب الأخرى لتلك الماكنة؛ إلى العمل والحركة، وتثيرها من مكمنها، فتفجر كنوز العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الإنسانية، فلا تمنح المصائبُ الإنسانَ الالتجاء إلى البارئ بلسان واحد؛ بل تجعله يلتجئ إليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه. وكأن الإنسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعوارض؛ يغدو قَلَمًا يتضمن آلاف الأقلام، فيكتب مقدرات حياته في صحيفة حياته، أو في اللوح المثالي، وينسج لوحة رائعة للأسماء الإلهية الحسنى! ويصبح بمثابة قصيدة عصماء، ولوحة إعلان؛ فيؤدي وظيفة فطرته".[1] وبهذا يمكننا القول: إن غائية الخلقة الإنسانية تتجلى أيضا في كون الإنسان -بهذا المعنى الكوني- أكمل مخلوق عاكس للأسماء الحسنى.

بـ٤- الإنسان ساع لتحقيق رغبة البقاء الكامنة في فطرته:

ينطلق الأستاذ النورسي في رؤيته الكونية للإنسان؛ من مقولة مهمة، راجعة إلى أصل قرآني، مفادها أن الماهية الإنسانية ماهية "خالدة". أي إن الإنسان إنما خُلق ليبقى، لا ليفنى، ويندثر في غيابات العدم. فالنفخ الرباني فيه بالروح هو الذي أعطاه الميزة الكونية العليا التي ميزت ماهيته بالخلود. وجبلت طبيعته على العبادة، إذ العبادة إنما هي حب البقاء المغروز في الإنسان، المنبعث من كوامنه؛ شوقا إلى الباقي، ﷻ. قال بديع الزمان: "إن روح الإنسان التي تنشد الأبدية والخلود، وهي التي خلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم من الفراق، تنهض بهذا الإنسان (...) ليناجي متضرعا أمام باب الحضرة الصمدانية، للقديم الباقي، وللقيوم السرمدي،

(١) اللمعات، ص ١٩-٢٠.

وليلتجئ إلى فضل رحمته الواسعة، وليقدم الشكر والحمد على نعمه التي لا تحصى".[1]

إن الطبيعة "البقائية" للإنسان بالمعنى الأخروي لتعتبر من الحقائق الكبرى التي استوقفت بديع الزمان في تفكره وتدبره، فنالت منه حظا وافرا من التأمل. فقرر في أكثر من موضع أن "الأجهزة التي زرعت في الإنسان ليست لهذه الحياة الدنيا التافهة، وإنما أنعم عليه بها لحياة باقية دائمة، لها شأن وأي شأن!"[2] ومن ألطف ما استعمله من استدلالات عقلية -إلى جانب استدلاله النقلي- على خلود الإنسان؛ ما فطر عليه ابن آدم من حب شديد للبقاء، وبغض شديد للفناء، في شتى صوره! وقد ضرب لذلك مثالا، أو بالأحرى نصب افتراضا توضيحيا، هو من الدقة بحيث يجعلك تقر وجدانيا بحقيقة ما ذهب إليه.. قال رحمه الله: "إن استعداد الإنسان مسدد نحو الأبد. فإن شئت فتأمل في جوهر الإنسانية، وقيمة ناطقيته، ومقتضى استعداده، ثم انظر إلى الخيال، الذي هو أصغر خادم لجوهر الإنسانية، واذهب إليه، وقل: أيها الخيال السيد، أبشر! فسيوهب لك عمر يزيد على ملايين السنين، مع سلطنة الدنيا وما فيها؛ ولكن عاقبتك الفناء والعدم، وعدم العودة إلى الحياة! ثم انظر كيف يقابلك الخيال؟ أبالبشارة والسرور، أم بالحسرة والندامة؟ بل إن جوهر الإنسانية سيئن في أعماق الوجدان:

آه! واحسرتاه..! على فقدان السعادة الأبدية!".[3]

وقال في موضع آخر: "لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان، وهي إحدى وسائل العقل، وأحد مصوريه: ستمنح لك سلطنة الدنيا وزينتها، مع عمر

---

(١) الكلمات، ص ٤٢.

(٢) الكلمات، ص ٣٦٥.

(٣) صيقل الإسلام، ص ١٣٧.

يزيد على مليون سنة، ولكن مصيرك إلى الفناء والعدم حتما؛ نراها تتأوه وتتحسر! -إن لم يتدخل الوهم وهوى النفس -أي إن أعظم فانٍ- وهو الدنيا وما فيها- لا يمكنه أن يشبع أصغر آلة في الإنسان، وهي الخيال! يظهر من هذا جيدا أن هذا الإنسان الذي له هذا الاستعداد الفطري، والذي له آمال تمتد إلى الأبد، وأفكار تحيط بالكون، ورغبات تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية، هذا الإنسان إنما خُلق للأبد، وسيرحل إليه حتما. فليست هذه الدنيا إلا مستضافا مؤقتا، وصالة انتظار الآخرة!".[1]

إنه ضرب من التحليل النفسي الدقيق، والاستبطان الوجداني العميق؛ للشخصية الإنسانية، وعرض التجربة الوجدانية لابن آدم مشرّحة، معروضة كما هي؛ بناء على القاسم المشترك في الفطرة البشرية، والغريزة الإنسانية، المجبولة على حب البقاء، والاستزادة من طول العمر. وذلك ما قررته الأحاديث النبوية، كما في قوله ﷺ: "يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ"،[2] وإنما كان بديع الزمان يعرض هذا المعنى بالذات، لكن في صورة تحسيسية، تمثيلية، مستثمرا نصوص الكتاب، وجوامع الكلم النبوي الشريف، في تفسير الوجود الإنساني. إن كلام بديع الزمان ضرب من "تحقيق مناط" الوحي -بتعبير الأصوليين- على النفس الإنسانية؛ إذ حب العيش الممتد أبدا أمر جبلّي في الإنسان، لا يخفف من غلوائه إلا الإيمان باليوم الآخر! وعلى هذا يفهم قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(البقرة:٩٦). فهذا الشعور في الحقيقة ليس خاصا باليهود والنصارى والذين أشركوا فحسب وإنما هو لديهم غال مفرط؛ بسبب غياب الإيمان

(١) الكلمات، ص ٩٥.

(٢) متفق عليه.

باليوم الآخر أو ضعفه الشديد لديهم، وإلا فهو طبيعة بشرية حاضرة حتى في الإنسان المؤمن ولكن باعتدال. وشاهده من الحديث النبوي كثير، وذلك نحو قوله تعالى في الحديث القدسي: "وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، ولا بد له من الموت!"[1] وأيضا ما رواه مسلم في صحيحه عن الرسول ﷺ مخبراً أن نبي الله موسى عليه السلام لما جاءه ملك الموت لطمه ففقأ إحدى عينيه[2] ونحو هذا لو تتبعناه كثير؛ ومن هنا لا يمكن إلا أن تقر -مع بديع الزمان- أن الإنسان فعلا "خُلِقَ للأبد والخلود؛ بدليل آماله الممتدة إلى الأبد (...) وهذا هو السر في ظهور ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق، في أعماق كل إنسان، فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق؛ لتنقذه من الموت الأبدي".[3]

وللبقاء عند النورسي مفهوم خاص. ذلك أن البقاء الحق إنما يجده الذي سعد بلقاء الله، ووصل إلى باب الرضى. فيجد من لذة البقاء في الدنيا قبل الآخرة ما يملأ قلبه طمأنينة وحبا في ربه، مما ينشط سيره إليه تعالى فلا يجد من الحياة وحشة، ولا من الموت فزعا. أما من ضل طريقه إلى ربه؛ فهو الذي يسقط في غيابات العدم، بمعنى أنه يشعر بالموت وكأنه نهاية قاضية، واندثار تام عن الوجود، فيملأ ذلك قلبه بؤسا، تماما كما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾(الممتحنة:١٣). ولبديع الزمان إشارات ولطائف، في استنباط هذا المعنى من القرآن. قال رحمه الله: "فالإنسان الذي تاه في كثرة المخلوقات،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر تمام القصة في صحيح مسلم ومسند أحمد وغيرهما. وانظر كذلك، المكتوبات: ٤٥١.

(٣) صيقل الإسلام، ص ٤٩٤.

وغرق في الكائنات، وأخذ حب الدنيا بلبّه، حتى غره تبسم الفانيات، وسقط في أحضانها، لا شك أن هذا الإنسان يخسر خسرانا مبينا، إذ يقع في الضلال والفناء والعدم، أي يعدم نفسه معنى.

ولكن الإنسان إذا ما رفع رأسه، واستمع بقلب شهيد لدروس الإيمان، من لسان القرآن، وتوجه إلى الوحدانية فإنه يستطيع أن يصعد بمعراج العبادة إلى عرش الكمالات والفضائل فيغدو إنسانا باقيا!".[1]

إن رغبة التعبد لدى الإنسان إذن؛ هي رغبة فطرية؛ بسبب ما جُبل عليه من حب البقاء. إلا أن هذه الرغبة قد تنحرف عن تجليات العبادة إلى تجليات "الأنانية". فما دام أنها رغبة فطرية؛ فلا بد أنها ظاهرة بصورة ما، ومعبرة عن نفسها تلقائيا بشكل ما. إما إيجابا: بالبحث عن الباقي سبحانه، والسير في طريق المعرفة القدسية؛ وإما سلبا: بالاستكبار في الأرض، والتأليه للنفس؛ ظنا بأن ذلك يحقق لها رغبة الخلود والبقاء. وما ذلك طبعا إلا الانحدار إلى غيابات الفناء والعدم المعنويين في الدنيا قبل الآخرة.

إن تحرير النفس من "الأنا" هو السبيل الوحيد للحصول على حقيقة الماهية الإنسانية -بمعناها الكوني- الساعية إلى البقاء بالباقي سبحانه، بعد فنائها عن أناها الواهمة. وإنما تحريرها: أن تنظر إليها -كما هي- بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى الاسمي على حد تعبير بديع الزمان، أي على أنها تابعة في وجودها تبعية الحروف في الجملة النحوية إلى الاسم، لا أصيلة الوجود، كما الأسماء. وإنما الاسم الحق هو الله رب العالمين. وأما "أنا" فليست في هذا السياق التفكري إلا "حرفا" بالمعنى الكوني لدى النورسي. أي بمعنى أنها تابعة في وجودها للباقي ﷻ.

(١) الكلمات، ص ٤١٨.

قال رحمه الله في كلام مفصل بديع: "اعلم، أن مفتاح العالم في يد الإنسان، وفي نفسه. فالكائنات -مع أنها مفتحة الأبواب- منغلقة، فالحق سبحانه أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح به كل أبواب العالم، وطلسما يفتح به كنز خلاق الكون. والمفتاح: ما فيك من "أنا". إلا أن "أنا" أيضا معمى مغلق، ومطلسم منغلق، فإذا فتحت "أنا" بمعرفة ماهيته الموهومة انفتح لك الكائنات!(...)

فالإنسان إذا عرف "أنا" ما هو؛ بأن رآه شعرة شعورية في حبل وجود الإنسان، وخيطا رقيقا في ثوب ماهية البشر، وألفا في كتاب الشخص؛ له وجهان: وجه إلى الخير، فبه قابل للفيض فقط، لا فاعل. ووجه إلى الشر والعدم وبه فاعل. وماهيته موهومة، وربوبيته مخيلة، ووجوده أضعف من أن يتحمل شيئا بالذات، بل إنما هو كميزان الحرارة، وأمثاله من الموازين، التي يعرف بها مقادير الأشياء. فـ"أنا" أيضا ميزان يعرف به الصفات المحيطة المطلقة للواجب الوجود، وأذعن: دخل تحت ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾(الشمس:٩) وأدى الأمانة بحقها.

فإذا تأملت في "أنا" بالمعنى الحرفي، صار لك عينا، تفهمتَ ورأيتَ به كل ما في الكون؛ لأنه إذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفت في "أنا" ما يصدقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفة "أنا" وربوبيته الموهومة، ومالكيته المفروضة. فليرجع "أنا" من السمكتية إلى الحبابية! وأما إذا نظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكا، وخنت في الأمانة؛ دخلت تحت: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(الشمس:١٠) إذ الأمانة التي تدهشت من حملها السماوات والأرض والجبال هي: "أنا" من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك، والشرور والضلالات، إذ إذا تستر "أنا" عنك غلظ! حتى صار

حبلا بلع وجودك، فصار كلك "أنا". ثم استغلظ بأنانية النوع، والاستناد به؛ فيصير شيطانا يبارز أمر صانعه! ثم يقيس الناس، ثم الأسباب على نفسه فيقع في شرك عظيم! ففي هذا الوجه لو أرسلت عينك، وفتحت كل الآفاق؛ انغلق في وجهك، برجوع عينك إلى نفسك؛ إذ ترى كل شيء بلون ما في نفسك من "أنا"! ولونه في ذاته -في هذا الوجه- الشرك والتعطيل. ولو مُلئت الآفاقُ آيات باهرة، وبقي في "أنا" نقطة مظلمة طمت على الآيات!".[1]

وليس عبثا أن كره النبي ﷺ سماع "أنا" من طارق الباب عندما سئل: "من؟" فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "استأذنت على النبي ﷺ فقال من هذا؟ فقلت: أنا. فقال النبي ﷺ: "أنا! أنا!"" وفي رواية لمسلم: "فخرج وهو يقول: أنا! أنا!" وقد ترجم مسلم لهذا الباب بقوله: "باب كراهة قول المستأذن: "أنا" إذا قيل: من هذا؟". وإنما كان قول النبي ﷺ ردا على الطارق: "أنا! أنا!" في رواية الشيخين؛ إنكارا ونهيا عن استعمال هذا التعبير في مثل هذا السياق؛ لما فيه من إحالة على قول إبليس اللعين لرب العالمين، في مقام الاستعلاء على آدم عليه السلام؛ غرورا وتكبرا، لما أمر بالسجود له، فقال: "أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ!" كما هو محكي في قول الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾(الأعراف:١٢-١٣).

وفي الحديث أيضا ما روي من قوله ﷺ إذ قال: "انتسب رجلان على عهد موسى، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان؛ حتى عد تسعة. فمن أنت

(١) المثنوي العربي النوري، ص ٣٢٧-٣٢٨.

لا أم لك؟ قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام. فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار، فأنت عاشرهم في النار! وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة".[1]

إن هذه "الأنا" التي ذابت -في نهاية المطاف- في الإسلام: "ابن الإسلام!" إنما وجودها في -شعور صاحبها- هو بالمعنى الحرفي لا الاسمي، كما بين النورسي. أما "الأنا" التي امتدت متسلسلة عبر ذاتها، محققة لكل طاقاتها "الأنانية"؛ فهي موجودة في حس صاحبها بالمعنى الاسمي. إن الشعور بـ"الأنا" في المجال التعبدي مخالف تماما لقصد الشارع الحكيم؛ بناء على ما أصلناه في الكتاب والسنة، من كمال إنساني، راجع إلى الإحساس بالفقر، والضعف، والحاجة إلى الله الواحد القهار. إنه إذن مناقض لمنطق العبودية؛ ومن هنا خطورته على المستوى العقدي.

إن الرغبة الفطرية في الإنسان للحصول على البقاء. كما قد تنقسم سلوكيا بين النظر الحرفي والنظر الاسمي، قد تنقسم كذلك "مذهبيا" إلى هذين المعنيين. ومن هنا مشكلة الفلسفة الغربية منذ القديم إلى الآن، إذ كانت قائمة في مقاصدها -ولا تزال- على تأليه الإنسان! والنظر إلى "أناه" بالمعنى الاسمي! مما أدى بها إلى التيه والعدمية في نهاية المطاف. وتلك نتيجة حتمية لمقدمات التأليه للأنا. قال بديع الزمان: "إن "أنا" له وجهان: وجه أخذته النبوة، ووجه أخذته الفلسفة.

فالوجه الأول: منشأ العبودية المحضة. ماهيته حرفية، ووجوده تبعي، ومالكيته وهمية، وحقيقته فرضية، ووظيفته: صيرورته ميزانا ومقياسا لفهم

(١) رواه النسائي، والبيهقي، والضياء عن أبي ﷺ. وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير، ١٤٩٢".

صفات الخالق. فالأنبياء هكذا نظروا إلى "أنا"، فسلموا الملك كله لله. وحكموا بأنه لا شريك له، لا في ملكه ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته. وبيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير. ومن هذا الوجه الشفاف الحي أنبت الرحيم ﷻ شجرة طوبى العبودية، فأثمرت أغصانها المباركة في حديقة الكائنات، دانية قطوفها، متدليةً ثمرات الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصديقين، المتلألئين كالنجوم في الظلمات!

وأما الفلسفة فنظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمي دون الحرفي، وبالوجود الأصلي دون التبعي، وزعموه مالكا بالحقيقة، وظنوه حقيقة ثابتة، وتوهموا وظيفته: تكمل ذاته بحب ذاته! فمن هنا تشعبت أنواع الشرك، وعلى رأس "أنا" نبتت شجرة زقوم الضلالة (...) فـ"أنا" في العالم الصغير، كالطبيعة في العالم الكبير: كلاهما من الطواغيت! ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٥٦).[1]

إن رغبة البقاء لدى الإنسان، إن لم تعتصم بالنبوة؛ فستتحول إلى جحيم من الشرور، بسبب ما تؤدي إليه من رغبة في السيطرة الظالمة، والهيمنة على الآخرين بغير حق، والسطو على حقهم في العيش والوجود. وهو تماما ما آلت إليه الفلسفة الغربية، التي أفرزت في نهاية المطاف فكرا استعماريا، أنانيا، متجبرا، ما يزال يسوم العالم من الويلات؛ ما يؤكد أن الجزاء الأخروي من العذاب المقيم، هو من صميم العدل الإلهي العظيم، الذي رتب للأنا الظالمة ما رتب لها من جزاء، بسبب الانحراف عن المهمة الكونية، التي خلقت من أجلها أصالة، والانحراف عن التوظيف

(١) المثنوي العربي النوري، ص ٣٢٩.

السليم لهذه الطاقة الهائلة، التي منحت للإنسان؛ لكي يحلق بها في أشواق الخلود؛ سلوكا إلى الباقي ﷻ.

قال الأستاذ النورسي: "إن حب الإنسان لنفسه، وتحري مصلحته وحده، وحبه لذاته وحده، من الأشكال الخبيثة لـ"أنا والأنانية"، وإذا ما اقترن العناد والغرور بذلك الميل؛ تولدت فظائع بشعة بحيث لم يعثر له البشر على اسم بعد. وكما أن هذا دليل على وجوب وجود جهنم، كذلك لا جزاء له إلا النار!"[1] ومن هنا، فقد آمن الأستاذ سعيد النورسي أن الرغبة الكونية للبقاء لدى الإنسان؛ إذا أخذت طريقها السليم في التعبير الوجودي، قد تفيد في الجزئيات وليس في الكليات فقط. بمعنى أن كل أمر خالطته "الأنا" -من الأمور الحياتية- لم يكتب له النجاح والبقاء، بينما إذا خلا منها صار إلى البقاء. هذا في كل شيء. حتى قال في سياق حديثه عن رسائله النورية: "يا سعيد! كن صعيدا! في نكران تام للذات، وترك للأنانية، وتواضع مطلق كالتراب؛ لئلا تعكر صفو رسائل النور، وتقلل من شأنها في النفوس!".[2]

بـ٥- الإنسان هو المشاهد عبودية الكائنات باستخلافه في الأرض:

إن الاستخلاف -كما يراه بديع الزمان- من خلال آي القرآن؛ ذو مغزى تعبدي، أي إنه استخلاف وظيفي، راجع إلى نيابة كلية شاملة عن سائر الكائنات، وجمع تام لسائر وظائفها الجزئية، في السير الشامل إلى الله العلي الكبير. فالكون كله إنما أنشئ ليكون مسجدا كبيرا للعابدين من الخلق أجمعين. ومن هنا قول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

(١) صيقل الإسلام، ص ٣٤٥.

(٢) الملاحق، ص ١١٠.

وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الدخان:٣٨-٣٩). فالإنسان إذن وجد في كون عابد، ليشهد على عبادته من خلال قراءة آيات الله في الأنفس والآفاق والتدبر في خلق السماوات والأرض. ليسلك إلى ربه عابدا وهو يجمع كل ذلك في وجدانه: أي بالعبادة الكلية الشاملة لله الواحد القهار. من هنا كان استخلافه كما عبرنا استفادة عن النورسي: "مشاهدة لعبادة الكائنات". فكان -لذلك- عبادة كلية شاملة. ولذا فإنه ينظر إلى الإنسان في عبادته نظرة كونية أيضا. يقول: "إن الصانع الحكيم قد خلق العالم الأكبر خلقا بديعا، ونقش آيات كبريائه عليه، بحيث جعل الكون على صورة مسجد كبير، وأنشأ سبحانه هذا الإنسان في أحسن تقويم، واهبا له العقل، بحيث جعله يسجد سجدة إعجاب أمام معجزات صنعته وبديع قدرته، واستقرأه آيات كبريائه، حتى صيره عبدا ساجدا في ذلك المسجد الكبير، بما غرز في فطرته من العبودية والخضوع له. فهل من الممكن أن يكون المعبود الحقيقي للساجدين العابدين، في هذا المسجد الكبير، غير الصانع الواحد الأحد؟".[1]

ولم يكن تعليم آدم الأسماء كلها إلا ليقوم بهذه العبادة الكلية، ويحسن "المشاهدة" الكونية؛ لعبادة سائر الكائنات، ولذلك كان استخلافه أساسا كما بينا. قال بديع الزمان: "فالآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) تبين أن تعليم الأسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم عليه السلام تجاه الملائكة؛ إظهارا لاستعداده للخلافة. وهي وإن كانت حادثة جزئية إلا أنها طرف لدستور كلي هو: أن تعليم الإنسان -المالك

(١) المكتوبات، ص ٣٠١.

لاستعداد جامع- علوما كثيرة لا تحد، وفنونا كثيرة لا تحصى، حتى تستغرق أنواع الكائنات، فضلا عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة، لصفات الخالق الكريم سبحانه، وشؤونه الحكيمة، إن هذا التعليم هو الذي أهّل الإنسان لينال أفضلية، ليس على الملائكة وحدهم، بل أيضا على السماوات والأرض والجبال، في حمل الأمانة الكبرى!".[1]

إن معنى "الأمانة الكبرى" الذي يتحدث عنه النورسي، فيه معنى "الإمامة التعبدية" للكون، في جماعة الخضوع لله، والدلالة عليه، فهذا الإنسان إذن "إمام" في ذلك المسجد الكبير، الذي هو الكون؛ يتقدم فيه إماما لسائر الكائنات العابدة. وكل الكائنات عابدة إكراها أو اختيارا. فهي إذن صف واحد تنتظم فيه، لتصلي مؤتمة بالإنسان، إمامها في السير إلى الله رب العالمين. يقول بديع الزمان: "إن الكريم ذا الجلال الذي ملأ هذا الكون بنعمه وآلائه إلى هذا المدى، بديهي -بل ضروري- أن يطلب الشكر من ذوي المشاعر تجاه تلك النعم. وإن الحكيم ذا الجلال الذي زين هذا الكون بمعجزات صنعته إلى هذا الحد؛ سيجعل بالبداهة من هو المختار الممتاز من أرباب الشعور مخاطبا له، وترجمانا لأوامره، ومبلغا لعباده، وإماما لهم. وإن الجميل ذا الكمال الذي جعل هذا الكون مظهرا -بما لا يعد ولا يحصى- لتجليات جماله وكماله، سيهب بالبداهة لمن هو أجمع نموذجٍ لبدائع صنعته، وأكملُ من يظهر ما يحبه، ويريد إظهاره من جمال وكمالٍ وأسماء حسنى.. سيهب له أكمل حالة للعبودية، جاعلا منه أسوة حسنة للآخرين، ويحثهم لاتباعه؛ ليظهر عندهم ما يماثل تلك الحالة اللطيفة الجميلة".[2]

---

(١) الكلمات، ص ٢٧٠.

(٢) اللمعات، ص ٨٥.

ومن هنا كان الإنسان موضع خطاب إلهي، بالرسالات والنبوات، ليتحمل تكاليف "التعبير" عن العبادة، أي من حيث هو "ناطق" بعبادة شمولية، تستقرئ كل الكون، وتستوعب كل أحواله التعبدية على الإجمال، لا على التفصيل. أعني من حيث إن كل شيء عابد لله الواحد دال على واحديته. فالناطقية الإنسانية إنما خلقت في الإنسان ليقوم بهذا الدور العظيم: الاستخلاف التعبدي، والمشاهدة للعبادة الكونية الشاملة، والتعبير عنها في سيره الجامع إلى الله. فأن يكون الإنسان موضع خطاب رب العالمين؛ هو -لعمري- أمر عظيم جدا، وتكريم كبير جدا، لهذا المخلوق الضعيف، لا يملك العبد المحب إزاءه إلا أن يخر ساجدا لله رب العالمين، على ما أنعم وأعطى من تأهيل وتشريف! إن بديع الزمان -وهو الرجل التدبري- قد انتبه وجدانه بقوة إلى هذه الحقيقة العظيمة: "أن يكون الإنسان موضع خطاب رب العالمين!" فما فتئ يعبر عنها في كل مناسبة من رسائل النور، تعبير المنبهر بفضل الله ونعمائه. قال رحمه الله: "كون الإنسان موضع خطابه سبحانه؛ بما أودع فيه من خصائص جامعة، أهلته ليكون موضع خطابه ﷻ".[1]

ولما كان الخطاب الإلهي للإنسان بالتكليف والعبادة، خطابا كليا، كونيا، أي إنه خاطبه باعتباره عبدا جامعيا لله الواحد الأحد، اجتمع في شخصه الآدمي ما تفرق في غيره، مما فصلناه قبل في "ثمريته الكونية"، و"عكسه الأكمل للأسماء الحسنى". والخطاب القرآني إنما خاطب الإنسان بهذه الصفة الكونية الشمولية الكلية. قال بديع الزمان: فالله "اختار هذا الإنسان من بين المخلوقات، وجعله مخاطبا كليا له، ومرآة جامعة

(١) اللمعات، ص ٥٩٥.

لأسمائه الحسنى، ومقدرا لما في خزائن رحمته من ينابيع، ومتذوقا لها ومتعرفا إليها".[1]

من هنا أيضا؛ كان الإنسان ناطقا باسم الكل، ومعبرا عن الكل، عابدا لله بكل شيء! فإشرافه الفكري على الكون بشموله، من حيث إن كل الكون مخلوق لله الواحد سبحانه؛ جعله يسير إلى الله عابدا بهذا الإشراف التفكري الشامل، وكأنه ناطق في عبادته باسم هذه الكائنات جميعا. وإنها لصورة بديعة يتحدث عنها النورسي رحمه الله، إذ ينبه إلى سر نعمة الناطقية، المودعة في الجهاز البدني للإنسان؛ ليقوم بوظيفة العبادة الشمولية، و"ينطق" باسم الكل. قال: "تفتحت صبغته ونقش حكمته في الإنسان عن زهرة خطاب، أي إن تلك الصنعة البديعة ذات مغاز دقيقة وجميلة، بحيث أنطقت ما في تلك الماكنة الحية من أجهزة، وإن ما صبغ بها من صبغة ربانية جعلتها في أحسن تقويم؛ حتى تفتحت عن زهرة البيان والخطاب! تلك الزهرة الحيوية المعنوية الغيبية في ذلك الرأس المادي الجامد، فمنح ﷻ رأس الإنسان من قابلية النطق والبيان؛ حتى انكشف ما فيه من أجهزة سامية معنوية، عن مراتب كثيرة وكثيرة جدا، أهلته لموضع خطاب السلطان الأزلي الجليل، مما نال رقيا ورفعة وسموا. أي إن الصبغة الربانية التي في فطرة الإنسان قد فتحت زهرة الخطاب الإلهي".[2]

إن "زهرة الخطاب الإلهي" هذه التي فتحت عبر الناطقية الإنسانية، هي الآلة العجيبة، التي تمكن الإنسان من التعبير عن العبادة الكونية الشاملة، والمشاهدة التفكرية، من خلال التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، ومن خلال الدعاء، وسائر أنواع الثناء على الله الواحد القهار،

(١) الكلمات، ص ٨٩.

(٢) المكتوبات، ص ٣٠٣.

والسير إليه عبر الكلمات الدالة على صفاته تعالى، وأنوار أسمائه وربوبيته، وامتداد ملكه اللامتناهي، وسلطانه المطلق -تماما كما ورد في الحديث النبوي- "مِلْءَ السماوات وملء الأرض، وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد!"[1] أليست هذه قراءة تفكرية للكون كله؟ ونطقا باسمه كله؟ وعبادة بعدد ذراته كله؟ ذلك بالذات ما وجده النورسي في معنى "الناطقية". هذا اللفظ الذي فرغه المناطقة من محتواه، وجعلوه "فصلا" ميكانيكيا؛ لتمييز الإنسان عن الحيوان فقط! إذ قالوا قولتهم الحدية المشهورة: "الإنسان حيوان ناطق". بينما هو -كما رأيت- عند النورسي، مفهوم كوني عظيم! قال رحمه الله مخاطبا "الإنسان": "إنك اللسان الناطق البليغ باسم هذه الموجودات الحكيمة، وإنك القارئ الداهي، والمطالع النبيه لكتاب العالم هذا. وإنك المشرف المتفكر في هذه المخلوقات المسبحة، وإنك بحكم الأستاذ الخبير، والمعمار الكريم، لهذه المصنوعات العابدة الساجدة!"[2] إنه إذن مشاهد لعبودية الكون لله الواحد القهار، حاضر في ركبها السائر إليه تعالى، بل هو الحادي لقافلة المحبين بتراتيله المعبرة الشاملة، قولا وسلوكا عاما، وما أنعمه عليه مولاه من ترتيل للقرآن الكريم وسائر الأدعية الكلية العظيمة مما أثر عن النبي ﷺ، وما اجتهده بعد ذلك عند حاجاته ومواجيده الكثيرة، التي لا تكاد تنحصر.

إن مشاهدة الإنسان لعبودية الكائنات لله، أشبه ما تكون بنوع من "الإمامة" في صف العبادة كما عبرنا قبل. ومن هنا فهي في عبادتها كأنها قائمة بالإنسان، تماما كقيام صلاة المأمومين بالإمام معنى. وهذا معنى أساس من معاني الاستخلاف الإنساني في الأرض. يقول بديع الزمان:

(١) رواه مسلم.

(٢) الكلمات، ص ٣٧١.

"إن الكائنات التي هي قائمة بسر القيومية فهي تقوم أيضا -من جهة- بالإنسان، الذي يمثل أكمل مظهر من مظاهر تجلي اسم "القيوم". أي إن القيومية تتجلى في الإنسان تجليا يجعل منه عمودا ساندا للكائنات جميعا، بمعنى أن أعظم الحكم الظاهرة في الكائنات وأغلب مصالحها وغاياتها تتوجه إلى الإنسان".[1]

وبهذا المعنى كان "شاهدا" على المخلوقات، قائدا لها في طريقه إلى الله، من حيث إنه مشاهد لعبادتها وتسبيحاتها في تفكره وتدبره، مستحضرا ذلك كله في عبادته لله على المستوى الوجداني، فهو إذ يسجد أو يتفكر، إنما يفعل ذلك وهو يعي أن الكون كله ساجد لله مسبح له، فشهوده لهذه الحقيقة يملأ قلبه بنوع من الأنس إذ رأى وشهد أن الكل لله الواحد القهار. فجمع في سيره إليه من كل ذلك معنى. وكان ذلك أساس استخلافه في الأرض. ومن هنا كان حسابه يوم القيامة كليا أيضا! لعظم ما أتيح له من إمكانات، وما كلفه من مسؤوليات. يقول بديع الزمان: "فيا ترى هل يقبل عقل بأن يترك هذا الإنسان، الذي أصبح مكرما بالخلافة والأمانة، والذي ارتقى إلى مرتبة القائد، والشاهد على المخلوقات، بتدخله في شؤون عبادة أغلب المخلوقات وتسبيحاته؛ بإعلانه الوحدانية في ميادين المخلوقات الكثيرة، وشهوده شؤون الربوبية الكلية.. فهل يمكن أن يترك هذا الإنسان، يذهب إلى القبر لينام هادئا دون أن ينبه ليسأل عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله؟ ودون أن يساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلا ثم كلا!".[2]

إن التكليف الإلهي للإنسان تكليف كوني! بمعنى أنه مكلف بما سبق

(١) اللمعات، ص ٥٩٣.

(٢) الكلمات، ص ٨٣.

ذكره من اعتبارات فهرستية، وجامعية، وشهودية، ولذلك كانت الأمانة التي حملها من الخطر ما جعل السماوات والأرض والجبال يأبين أن يحملنها ويشفقن منها! وهذه كلها كائنات كونية! إنها الإمامة الكونية كما بينا. وليس من السهل أن يتقدم مخلوق بين يدي الله؛ نائبا، وإماما لسائر الكائنات في الوجود، ناطقا باسم الكل، في صف العبادة الشاملة! فمفهوم "الخلافة" يرجع أساسا إلى معنى النيابة، ومن هنا كانت نيابة الإنسان بمعنيين: الأول نيابة عن الكائنات بما بينا، والثاني: نيابة عن الله في دلالة خلقه عليه تعالى. ومن هنا فُرّغ من كل خدمة، وسُخّر كل شيء خادما له! حتى يقوم هو بوظيفة الخلافة في الأرض خير قيام. ويكون أعبد الخلق لله؛ ولذلك فإن الله "وهب لهذا الإنسان استعدادا فطريا ساميا؛ ما يمكنه من حمل الأمانة الكبرى، التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، أي خلقه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة، المحيطة، وشؤونه الكلية، وتجلياته المطلقة، بموازينه الجزئية ومهاراته الضئيلة، والذي برأه بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها. فسخر له جميعها من نبات وحيوان؛ حتى نصبه مشرفا ومنظما ومتدخلا في أنماط تسبيحاتها وعباداتها، والذي جعله نموذجا -بمقاييس مصغرة- للإجراءات الإلهية في الكون، ودلالا لإعلان الربوبية المنزهة -فعلا وقولا- على الكائنات؛ حتى منحه منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة".[1]

فكان إذن من مقتضى شهوده عبادة الكون؛ أن يقوم بتوجيه ما سخر له من مخلوقات، في الاتجاه الصحيح، إلى قبلة واحدة: عبادة الله الواحد الأحد. فلتكن كل الصناعات والإنتاج البشري في المجال الحضاري

(١) الكلمات، ص ٩٤.

العام متوجها إلى الله بالعبادة حتى يستفيد من توظيف ذلك كله لما خلق له فلا يزغ به عن أهدافه التعبدية فيحاسب حسابا عسيرا عن كل ذلك فهو المسؤول عن عمارة الأرض وحكمها بسلطان الله الذي استخلفه إماما للعابدين. ومن هنا فما دام الإنسان "يحكم في شتى جهات هذه الأرض(...) ويتصرف في أغلب مخلوقاتها، مسخرا أكثر الأحياء له، جاعلا أكثر المصنوعات تحوم حوله، وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية، وينظمها ويعرضها ويزينها، وينسق الأنواع العجيبة منها في كل مكان، بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضا نظر أهل السماوات، والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له -من هذه الجهة- أهمية عظيمة، وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم، ومهارة؛ أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وأنه هو نتيجتها العظمى، وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الأرض".[1]

ولهذا جميعه كانت الأرض بتلك القيمة العظيمة التي ذكرت في القرآن. وهو معنى لطيف جدا، انتبه إليه بديع الزمان بحسه المرهف، ونظره الصافي صفاء مشاهده من آيات الله في الكون. إذ وجد أن الأرض وهي نقطة ضئيلة جدا في فضاءات السماء الدنيا؛ ذكرت في القرآن مرارا كمعادل للسماوات كلها! وذلك نحو قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(الأنبياء:٣٠) وقوله سبحانه: ﴿تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾(طه:٣) وقوله أيضا: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

(١) الكلمات، ص ١١١.

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(هود:٧) ونحو هذا كثيرا جدا.

فذكر الأرض في قصة الخلق -وهي بمقياس ذرة بالنسبة إلى السماوات السبع وما فيهن- إنما هو دال على خصوصيتها وشرفها. وما ذلك لذاتها، وإنما لشرف ساكنها: الإنسان هذا الخليفة الرباني المكرم. ففي الأرض موطنه يعبد الله ومنها ينطلق في سيره الشمولي إليه تعالى بشهوده على الخلق، ولذلك كانت مجالا خاصا بالإنسان صالحا لعيشه وحياته التعبدية ذات قابلية لاحتضانه واحتضان كل مكتشفاته من وسائل الحضارة والمدنية، ومظهرا كليا لما في الكون من حقائق على سبيل الفهرسة المختصرة، والتمثيل المعبر. قال بديع الزمان: "إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة (...)؛ ومن هنا فإن مهد هذا الإنسان، ومسكنه، وهو الأرض، كفء للسماء معنى وصنعة. ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه، ومشهر جميع معجزات الصنعة الربانية، ومظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى وبؤرتها، ومعكس الفعاليات الربانية المطلقة، ومحشرها، وسوق عرض المخلوقات الإلهية بجود مطلق، ولا سيما عرضها لكثرة كاثرة من النباتات والحيوانات. وهي نموذج مصغر لما يعرض في عالم الآخرة من مصنوعات، ومصنع يعمل بسرعة فائقة لإنتاج المنسوجات الأبدية، والمناظر السرمدية المتبدلة بسرعة، وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة".[1]

وبهذا القصد الابتلائي زينت الدنيا أصالة للإنسان، على وزان قول الرسول ﷺ: "الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقه بورك له فيها، ورُبَّ متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار!".[2]

---

(١) الكلمات، ص ٢٠٤.

(٢) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٣٤١٠.

ومن هنا إذن؛ اقتضت خلافة الإنسان في الأرض أن "يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا".[1] فإذا كان ذلك كذلك؛ تبين لك كيف أن النورسي جعل الإنسان: هو المشاهد عبودية الكائنات باستخلافه في الأرض.

بـ٦- عبادةً كليةً لله الواحد الأحد:

إن "التعبد الكلي" الذي يتحلى به الإنسان في سيره إلى الله راجع أساسا إلى ما فطره الله عليه من جامعية في الخلق والاستعداد كما بين النورسي. ولذلك كان أشمل الكائنات في التعبير عن الفقر والاحتياج البالغين إلى الله؛ فكان كماله في شدة ضعفه. وذلك أساس التعبد، ومؤهله العظيم فطرة وخلقة جامعة. قال بديع الزمان: "إن مقام الإنسان الراقي، وتفوقه على سائر الأحياء، وامتيازه عليها إنما هو لسجاياه السامية، ولاستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية".[2]

وهو سر سيادته الكونية التعبدية. قال رحمه الله: "هذا الإنسان، هو سيد الموجودات، رغم أنه صغير جدا؛ لما يملك من فطرة جامعة شاملة. فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة، ومظهرها. لذا فإن له أهمية عظمى".[3]

إن الكون كله يعبد الله في مسجد واحد هو هذا الوجود. وكل شيء داخل في الصف طوعا أو كرها. إلا الإنسان فقد تُرك لنفسه هذه أن تحقق الكمال بالاختيار! ولم يقبل منها إلا الاختيار! وتلك هي رتبة الكمال في العبادة. فما عليه إذن إلا أن يقرر الانتساب إلى قافلة المحبين، وينطلق

(١) الكلمات، ص ١١١.

(٢) الشعاعات، ص ٢٧.

(٣) الكلمات، ص ٦٣-٦٤.

سيرا على درب الوصل الكلي. فأسلاك الغيب موصولة بكل شيء في الكون وما عليه إلا أن يصل أسلاك قلبه هو بأقرب شيء إليه ليكون في صف المتعبدين إماما! ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤). قال بديع الزمان: "إن الإنسان كالشجر الذي علق على ذروته كثير من خطوط الآلة البرقية، قد التفت على رأسه رؤوس أنظمة الخلقة، وامتدت مشرعة إليه قوانين الفطرة، وانعكست متمركزة فيه أشعة النواميس الإلهية في الكائنات. فلا بد للبشر أن يتممها ويربطها، وينتسب إليها، ويتشبث بأذيالها؛ ليسري الجريان العمومي؛ حتى لا يزلق، ولا يطرد، ولا يلقى عن ظهر هذه الدواليب المتحركة في الطبقات. وما هي إلا بالعبادة التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي".[1]

ومن هنا تنطلق "كليته التعبدية"؛ ذلك أن ربط الإنسان أسلاك الاتصال بكل عناصر الكون؛ إنما يكون على سبيل التفكر، حيث يعمل يوما بعد يوم -وهو جاد في سيره إلى الله- على فك ألغاز ما حوله، وفهم كل حركة كونية، في فلك الخلق؛ ليفهم سر المخاطبات التعبدية، التي فطر عليها كل كائن من الموجودات، ويتدبر في سر وجوده، ووظيفته التعبدية. حتى إذا انكشف له سر الحكم الإلهية، فيما وصل إليه فكره ونظره؛ كان حكيما حقا، وحاز على خير كثير ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(البقرة:٢٦٩)، ثم كان سيد العابدين، وإمام السائرين؛ بجمعه وعي الكل في وعيه، وسيره بكل ذلك إلى الله.

وبذلك فقط يكتسب الإنسان صفة "الإنسانية الحقة" التي بها تأهل للاستخلاف في الأرض والتي بها نال ما نال من تكريم. فإما يكتسبها

(١) إشارات الإعجاز، ص ١٤.

بانخراطه في وظيفة "الإنسانية" وإما يفقدها بالعصيان والتمرد، فلا يكون إنسانا إلا شبها! وهذا المعنى تواتر في فكر بديع الزمان تواترا كليا؛ حتى صار لمفهوم "الإنسانية" عنده معنى خاص، سيأتي بيانه بحول الله.[1] قال رحمه الله: "فالإنسان إذن يصبح إنسانا حقا؛ ما دام يتأمل وينظر إلى تلك الوجوه المتوجهة نحو الخلود، وعنده يجد سبيلا من الفاني إلى الباقي".[2] وقال: "فالإنسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح إنسانا حقا، ويظهر أنه "فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"؛ فيصير بيُمن الإيمان، وبركته لائقا للأمانة الكبرى، وخليفة أمينا على الأرض".[3]

ذلك أن الأهلية الإنسانية لحب المعرفة رقَّته إلى صف المؤهلين لمعرفة الله تعالى. ولا أحد يعرفه تعالى أكثر من الإنسان، الذي يعتبر المستفيد الأكبر من أنوار الأسماء الحسنى، من حيث سعة حاجاته التي لا تجتمع في مخلوق آخر كما اجتمعت فيه! "يتضح من هذا أن وظيفة الإنسان الفطرية إنما هي التكمل "بالتعلم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية بالدعاء (...) إذن فلقد جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم؛ لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء؛ لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم، ومتعلق بالمعرفة، حسب الماهية والاستعداد. فأساس كل العلوم الحقيقية، ومعدنها ونورها، وروحها، هو "معرفة الله تعالى" كما أن أس هذا الأساس هو الإيمان بالله جل وعلا".[4] ذلك هو ما سماه بديع الزمان في موطن آخر بـ"المعرفة القدسية"، ذلك أن "ذروة الكمال الإنساني: إنما

(١) انظر مشتقات هذا المصطلح بهذا البحث.

(٢) الكلمات، ص ٩٢.

(٣) الكلمات، ص ٣٧٣.

(٤) الكلمات، ص ٣٥٥.

هو في الإيمان والمعرفة القدسية، السامية، المفصلة، والمبرهنة، النابعة من الإيمان التحقيقي!".[1]

وبهذا أساسا اكتسب الإنسان كليته التعبدية. فالاستعدادات المعرفية الشاملة، إنما هي قائمة به على ما أودع في "ثمريته" من خصائص شاملة ترفعه -على سبيل الإمكان- إلى أعلى درجات المعرفة بالله. يقول بديع الزمان: "إن الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل، وله نظر عام إلى الجميع، ويضم جهة وحدة الكل، فهو مخلوق يحمل نواة القلب، ووجهه متوجه إلى الكثرة -من المخلوقات- وإلى الفناء، وإلى الدنيا، ولكن العبادة التي هي حبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدانية، ومن المنتهى إلى المبتدأ".[2]

لقد حل بديع الزمان بتوظيفه مفهوم "الكلية" في التعبد الإنساني إشكالا تصوريا، على مستوى العقيدة، قد يستغله بعضهم لإثارة الشبهات على الإسلام، والنورسي رحمه الله كان قد آلى على نفسه دفع هذه الشبهات وبيان حقائق القرآن بما لم يكد يسبق له مثيل في التاريخ! استجابة لموجة الإلحاد الصريح الذي تفشى في المجتمع الإسلامي في النصف الأول من القرن الميلادي العشرين! والشبهة هي كيف يعذب الله ﷻ الإنسان الكافر عذابا سرمديا خالدا أبدا، والحال أن عمره الذي قضاه في الدنيا قليل جدا؟ ألا يكون من الأعدل أن يعذب مدةَ ما قضاه من سنوات عمره في الدنيا؟

إن القول بخلافة الإنسان وما أوتي من مؤهلات هائلة، وفرص غير

(١) الملاحق، ص ٢٧.

(٢) الكلمات، ص ٤١٨.

محدودة، لعبادة الله بصور شتى، وما ينبني على ذلك من إمامة كونية للإنسان، وما بينه النورسي من طبيعة شمولية للدين في سير العبد إلى الله؛ يقتضى أن يكون الجزاء من جنس العمل: إما سعادة كلية، أو عذاب كلي والعياذ بالله. فإذا كانت طاعة الإنسان لربه طاعة كونية من حيث هو إمام كوني؛ فكذلك لا يكون الكفر إلا كونيا! وبيان ذلك بنصه هو كما يلي: قال رحمه الله: "لا يخطرن على البال كذلك: كيف يكون هذا الإنسان محكوما بعذاب أبدي، مع أن له عمرا قصيرا جدا؟

لأن الكفر جريمة كبرى، وجناية لا حدود لها، حيث إنه يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها -التي توازي قيمة مكاتيب صمدانية، ودرجتها- إلى هاوية العبث، ويوهم عدم وجود الغاية من إيجادها. إنه تحقير بيّن للكائنات كلها، وإنكار لما يشاهد من أنوار الأسماء الحسنى كلها، وإنكار آثارها في هذه الموجودات، ومن ثم فإنه تكذيب ما لا يحصى من الأدلة الدالة على حقيقة وجود ذات الحق ﷻ، وكل هذا جناية لا حدود لها، والجناية التي لا حدود لها، توجب عذابا غير محدد بحدود!".[1]

إن العبادة الكلية لله التي يمارسها الإنسان هي التي ترفع مقامه إلى مستوى فطرته الكونية من حيث هو كائن مركزي في هذا الكون وبذلك أساسا تكتمل عبادته لله الواحد القهار، وتتجلى إمامته للكائنات في السير التعبدي إلى الله. ذلك أن الشعور البشري بماهيته الكونية يملأ وجدانه أنسا وأملا وقوة، كما يشعره بجدوى الحياة وعمقها الغيبي البعيد. وهذا كله يجعله ينخرط بجدية ونشاط في وظيفته التعبدية، وشهادته على الكون. إلا أن هذه التصورات جميعا، وهذه المواجيد كلها؛ لا تتأتى

(١) الكلمات، ص ٦٤.

إلا عن طريق "الإيمان" طبعا؛ لأن المسألة في النهاية مسألة تصورات ومعتقدات. صحيح أن قراءة الكون قراءة صحيحة ستقود إلى ذلك حتما؛ إلا أن الوجدان الإيماني هو الذي يفجر تلك الطاقة الاستيعابية لدى الإنسان؛ لإدراك ماهيته الكونية، في أبعادها الغيبية؛ مما يولد لديه أنسا خاصا كما ذكرنا، واستعدادا هائلا للعمل والعبادة. إن الإيمان يجعل قراءة الإنسان للكون قائمة على أساس الأحدية والواحدية، أي إثبات وحدة الإبداع والخلق، ثم وحدة المآل والقصد لسائر الكائنات. يقول بديع الزمان: "إن أي مخلوق مهما كان صغيرا، إنما هو مثال مصغر للكون كله، ونموذجه، وفهرسه المختصر، بمقتضى تجلي الأحدية. فلا يكون مالكا لذلك المخلوق الحي الصغير إلاّ من كان بيده زمام الكون كله! وله الأمر جميعا. وحيث إن كل بذرة متناهية في الصغر؛ ليست بأقل إبداعا في الخلق؛ من شجرة ضخمة، وأن كل شجرة باسقة، تضاهي في خلقها خلق الكائنات، وكل كائن حي صغير إنما هو بحكم عالم مصغر، وكون صغير؛ فإن تجلي الأحدية هذا يجعل الشرك والاشتراك محالا ممتنعا!

ثم إن هذا الكون -في ضوء هذا السر، سر الأحدية- ليس كلا يستعصي على التجزئة وحدها، بل أيضا هو كلي من حيث الماهية، لا يقبل الانقسام، والاشتراك، والتجزئة، وتدخل الأيدي المتعددة قط. فإن كل جزء فيه بحكم جزئي وفرد منه، وكل الكون هو بحكم الكون الكلي. فليس فيه موضع للاشتراك في أي جهة كانت".[1]

فإذا كان الكون كله "كلا من حيث الماهية" على حد تعبير النورسي، من حيث هو مخلوق لخالق واحد، هو الله تبارك وتعالى؛ وإذا كان كل جزء

(١) اللمعات، ص ٥٥١.

منه -مهما كان صغيرا- نموذجا مصغرا لذلك الكل؛ فمعنى ذلك أن ذات الإنسان التي أثبت النورسي أنها فهرست للكون؛ هي أجمع نموذج لسائر الكائنات؛ من هنا إذن سوف يكون الإنسان أرقى مخاطب رباني بالأمر الإلهي التعبدي خاصة! ولا تكون إمامته للكائنات في السير إلى الله إلا بهذا المعنى. من هنا إذن يجد المؤمن ما يجده من أنس، وأخوّة كونية، ونشاط في أداء مهمة الحياة، وكذا فرح عند نهايتها، بموته الذي هو موعد التسريح من التكليف، وتحمل الأمانة؛ إلى السعادة الأبدية، في عالم البقاء السامي. هذا أساس سعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، وهذا أساس استبشاره بكل شيء من المخلوقات، وأنسه بها، وإلفه إياها. ولا يكون الكفر بعد ذلك إلا طمسا لهذه الحقيقة. ودخولا في ظلام دامس، وعمى عن الحقيقة الكونية للإنسان؛ فلا يرى -بسبب ذلك- من الكائنات إلا ما يهدده، ويفزعه، ويرعبه؛ فيدخل في صراع خاسر مع كل شيء حتى مع نفسه!

قال بديع الزمان: "إن الكفر والضلال يُريان الكون لأهلهما أنه مليء بآلاف الأعداء المخيفين، بل هو سلسلة من طوائف تعادي الإنسان، ابتداء من المنظومة الشمسية، وانتهاء إلى ميكروبات التدرن الرئوي، كلها تعادي الإنسان المسكين، بأيدي القوى العمياء، والمصادفة العشواء، والطبيعة الصماء؛ حتى تجعله في رعب دائم! (...).

فهذه الأمور المتسلسلة المترابطة في الكون، سواء منها المادية أو المعنوية؛ تهاجم أهل الضلال الذين حرموا من الإيمان، وتهددهم وترهبهم، وتحطم قواهم المعنوية، بينما لا تخيف أهل الإيمان ولا تهددهم بشيء. بل تبعث فيهم السرور والسعادة والأنس والأمل والقوة. وذلك لأنهم يرون الوجود بنور الإيمان، وتلك الحوادث المتسلسلة (...)

إنما تساق إلى وظيفة معينة محددة؛ من قبل صانع حكيم؛ لتؤديها ضمن نظام وحكمة، من دون اختلاط ولا تجاوز قط. فيُرِي الإيمانُ المؤمنَ أن كل شيء ينال قبسا من تجليات جمال الله، وإتقان صنعته سبحانه، ويمنحه قوة معنوية عظيمة، بما يفتح له من نماذج للسعادة الأبدية".[1]

إن إمكان تحصيل هذه النظرية المتفائلة، والممتدة إلى استيعاب كل شيء، على سبيل الأخوّة الكونية، والاندماج الخَلقي، والهدف التعبدي، ولو عن ظهر غيب؛ إنما هو قائم على إدراك طبيعة الارتباط الكوني البشري، الراجعة إلى الإيمان بوحدة الصنعة والخلق، أي إلى "الأحدية"، ووحدة الشعور والقصد، أي إلى "الواحدية". أو بكلمة واحدة: لا بد من الإيمان بوحدة الكون، من حيث هو مخلوق لخالق واحد -حاشا وحدة الوجود- وبتداخل بعض عناصره مع بعض، وتواصلها الدائم المستمر، سواء عالم الغيب منه وعالم الشهادة؛ وهناك ترى ما لا يراه الذين أعماهم الكفر عن مشاهدة الماهية الكونية للإنسان، وما يجده هذا الأخير من لذة وجمال في الحياة، والسير إلى الله، في هذا الموكب الكوني العظيم، الحافل، وهو يحتل منه مركز القيادة، والريادة التعبدية.

قال بديع الزمان: "إن مملكة السماوات التي هي في غاية البعد، من حيث العاصمة والمركز؛ فإن لها هواتف معنوية، تمتد منها إلى قلوب الناس في مملكة الأرض. فضلا عن أن عالم السموات لا يشرف على العالم الجسماني وحده، بل يتضمن عالم الأرواح وعالم الملكوت؛ لذا فعالم السماوات يحيط -بجهة- بعالم الشهادة تحت ستار.(...)

فكما أن حواس الإنسان، التي أودعها الصانع الحكيم الجليل، بحكمته

(١) صيقل الإسلام، ص ٥١٩-٥٢٠.

وبقدرته؛ في رأس الإنسان؛ فعلى الرغم من أن مراكزها مختلفة، فإن كلا منها تسيطر على الجسم كله، وتأخذه ضمن دائرة تصرفها. كذلك الكون الذي هو إنسان أكبر، يضم ألوف العوالم الشبيهة بالدوائر المتداخلة".[1] إلى أن يقول: "إن هذا العالم الفاني، وعالم الشهادة، حجاب لعالم الغيب وعالم البقاء. إنه يمكن رؤية الجنة في كل جهة، مع أن مركزها العظيم في مكان بعيد جدا؛ وذلك بواسطة مرآة عالم المثال. ويمكن أيضا بواسطة الإيمان البالغ درجة حق اليقين؛ أن تكون للجنة دوائر، ومستعمرات، "لا مشاحة في الأمثال" في هذا العالم الفاني، ويمكن أن تكون هناك مخابرات، واتصالات، معها بالأرواح الرفيعة، وبهاتف القلب، ويمكن أن ترد منها الثمار".[2]

إن "العبادة الكلية لله الواحد الأحد" التي هي وظيفة الإنسان في الأرض؛ تصله عبر أسلاك الكائنات جميعا بالواحد الأحد؛ فيرى في كل شيء مرآة لجمال الله، وانعكاسا لأسمائه الحسنى. ومن ههنا فهو يتلمس سائر أخبار القرآن عن الكون والملكوت الغيبي، في امتداداتها الأرضية؛ من حيث إنها مسالكه التفكرية، التي تصل به إلى الله، كما أنها دروبه المعراجية، التي يترقى بها إلى منازل اليقين. ومن هنا أيضا كانت الكثرة المنتظمة في كلي الكون تقود -جميعها- إلى الواحد الأحد.

- ثانيا: مشتقاته وضمائمه:

أ - مشتقاته:

- الإنسانية:

الإنسانية: هي الفطرة التعبدية لدى الإنسان، ببعدها الكوني الشامل، واستعداداتها التفكرية لتذوق الإيمان.

---

(١) اللمعات، ص ٤٥٢.

(٢) اللمعات، ص ٤٥٤.

ذلك أن بديع الزمان خص مفهوم الإنسانية بما جُبل عليه الإنسان خِلقيا من قابلية للتدين. فمن فقد هذه القابلية؛ بسبب ما يلقي عليه الكفر من ثقافات مغشية لإحساسه الفطري؛ فهذا يعتبر لدى النورسي قد فقد "إنسانيته" حقا. ومن لم يزل يتمتع بذوق ديني للحياة فهو "الإنساني" بهذا المعنى، لا سواه. إن "الإنسانية" لدى بديع الزمان تقوم أساسا على "النسبة" لمفهوم الإنسان كما ورد عنده، مما فصلناه هنا. فإذن لابد أن تكون هذه الصفة محملة بكل دلالات "الإنسان" الاستخلافية في الأرض. فالاستعداد لهذا المعنى لدى كل شخص يعتبر "إنسانية". أعني كونه يطمح في وجدانه وتفكره لتحقيق وجوده الاستخلافي كإنسان، خُلق أصالة لهذا.

وهذا المعنى من ألطف ما ورد عن النورسي من خصوصيات اصطلاحية، مستنبطة من مفهوم "الإنسان" كما وجده؛ بتدبره رحمه الله للقرآن الكريم، وهذا اصطلاح قد لا تجده -بهذا المفهوم- عند غيره. يقول رحمه الله: "ما يطلق عليه لفظ "الإنسانية" التي هي قصيدة حكيمة منظومة، تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية (...) هذه "الإنسانية" يقذفها الكفر من صورتها الحية، التي تفوقت بها على الأرض والجبال والسماوات، بما أخذت على عاتقها من الأمانة الكبرى، وفضلت على الملائكة، وترجحت عليها حتى أصبحت صاحبة مرتبة خلافة الأرض - يقذفها من هذه القمة السامية العالية إلى دركات هي أذل وأدنى من أي مخلوق ذليل فان عاجز ضعيف فقير، بل يرديها إلى دركة أتفه الصور القبيحة الزائلة سريعا".[1] وقال أيضا: "حسبي من جعلني إنسانا؛ فأنعم عليّ بنعمة الإنسانية التي صيرت الإنسان عالما!".[2] فنعمة

(١) الكلمات، ص ٣٦١.

(٢) الشعاعات، ص ١٠١.

الإنسانية هي القدرة الفطرية -كما بينا في التعريف- على تذوق معنى الوجود؛ بغاية شغل وظيفة الخليفة فيه. قال: "وأكرمنا سبحانه بإنسانية بحيث نتذوق بآلاتها العديدة -كالعقل والقلب- من هدايا غير متناهية، لعالم المادة ولعالم المعنى ما نتذوق!"[1] وقال في تتميم هذا المعنى: "فما غايات حياتك، وما حقوقها؛ إلا إظهارك لآثار تجليات أسمائه، وتشهير غرائبها لدى أنظار المخلوقات. وما إنسانيتك إلا شعورك بهذه الوظيفة".[2] وأما عدم الشعور بها فيعني فقدان صفة الإيمان؛ لفقدان صفة الإنسانية أصلا! فالكفر لا يطمس الإيمان؛ إلا بعد أن يطمس القابلية له! وما تلك القابلية إلا صفة الإنسانية! ومن هنا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾(البقرة:١٣)، قال: "فاتبعوا جمهور الناس؛ إذ (...) يلوح بأنهم هم "الناس" فقط، كأن من عداهم ليسوا بإنسان إلا صورة، إما بترقي هؤلاء في الكمالات، وانحصار حقيقة الإنسانية عليهم، وإما بتدني أولئك عن مرتبة الإنسانية".[3]

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٧). قال: "إن التعبير بـ"الناس" يشير إلى أنه -مع قطع النظر عن سائر الصفات المنافية للنفاق- فأعم الصفات، أعني: الإنسانية، أيضا منافية له؛ إذ الإنسان مكرم ليس من شأنه هذه الرذالة".[4]

فمن الطبيعي إذن؛ أن يجد المؤمن؛ بسبب إدراكه لبعده الكوني كخليفة في الأرض، ما لا يجده الكافر، الذي يعيش في الواقع نوعا من المسخ

---

(١) الشعاعات، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) المثنوي العربي النوري، ص ٣٨٦.

(٣) إشارات الإعجاز، ص ١٠٣.

(٤) إشارات الإعجاز، ص ٨٩.

لهويته الكونية، والانحطاط عن طبيعته الإنسانية، وفطرته الوجودية. وإنما "الإنسانية" -في مفهوم بديع الزمان النورسي كما ذكرنا- هي الفطرة التعبدية لدى الإنسان، ببعدها الكوني، وبإدراكها الوجودي الشامل! ذلك أن الله ﷻ -يقول النورسي- هو الذي: "منح "الإنسانية" (يعني: للإنسان)؛ ففتحت نعمة الوجود بتلك "الإنسانية" وبانكشافها طريق الاستفادة من تلك الموائد المنصوبة، الواسعة، في العوالم المادية والمعنوية، بمشاعر خاصة بالإنسان".[1]

ومن هنا تكون "الإنسانية" -بهذا المعنى- من أكبر النعم التي أعطيت للإنسان، بمحض فطرته وخلقته، المجبولة على الإدراك الكوني لفعل التعبد؛ فكان بذلك نموذجا لهذا العالم، وفهرستا لهذا الكون. وإذا كان الإسلام وحده كدين هو الذي يفصل هذه المعاني الكلية للإنسان كان الإسلام هو الإنسانية في أجلى صورها. ومن هنا كان لبديع الزمان في منظومته الاصطلاحية مصطلح: "الإنسانية الحقة" أو "الإنسانية الكبرى" للدلالة على ذلك. وبيانه كما يلي:

- الإنسانية الكبرى أو الإنسانية الحقة:

الإنسانية الكبرى أو الحقة: ضميمتان اصطلاحيتان بمعنى واحد لدى بديع الزمان. ومعناهما: دين الإسلام خاصة، عقيدة وشريعة. قال رحمه الله: "إن الإسلام الذي هو الإنسانية الكبرى سيسطع كالشمس في رابعة النهار؛ في سماء المستقبل، وعلى جنان آسيا!".[2] إلى أن يقول مفصلا الأبعاد الكونية للمصطلح، في مقابل ما سماه بـ"الإنسانية الصغرى" وهي "المدنية"، أي الحضارة البشرية، المحدودة بنوعيها المادي للأشياء.

(١) الشعاعات، ص ٧٧.

(٢) صيقل الإسلام، ص ٤٩-٥٠.

يقول: "إن الحاكم على الدهر، وعلى طبائع البشر؛ إلى يوم القيامة؛ هو حقيقة الإسلام، التي هي تجلي العدالة الأزلية في عالم الكون، والتي هي الإنسانية الكبرى! وما محاسن المدنية التي هي الإنسانية الصغرى إلا مقدمة لها!"[1] وإنما ذلك من حيث إن الإسلام هو الأقدر على تعميق وعي الإنسان، وشعوره بماهيته الكونية؛ بسبب عقائده القائمة على هذا القرآن العظيم، الذي هو كتاب الله الكوني، والذي أنزل فيه تفصيل كل شيء، وبيان كل شيء، مما يتعلق بالإنسان أساسا؛ باعتباره كائنا وجوديا، يأتي في مقدمة المخلوقات؛ ثمرة لهذا الكون.

كما ورد عنه التعبير بـ"الإنسانية الحقة" بدل "الكبرى" كما ذكرنا، وذلك نحو ما في قوله: "إن مخزن الآخرة هو دار الدنيا، ومزرعةَ الجنة ومستودعها هو عالم الإسلام، وعالم الإنسانية الحقة، الذي تنبعث منه الحسنات والحسن والأنوار!".[2] وقال رحمه الله: "إن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا، بل يجعله سلطانا؛ لذا كانت وظيفته الأساس: الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه. بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز(...) نعم، إن التفاوت بين مجيء الحيوان والإنسان إلى هذه الدنيا يدل على أن اكتمال الإنسانية، وارتقاءها إلى الإنسانية الحقة، إنما هو بالإيمان وحده".[3]

ب- ضمائمه:

- الإنسان الحق:

الإنسان الحق: هو المسلم الصادق، الملتزم بدينه عقيدة وشريعة،

---

(١) صيقل الإسلام، ص ٥١-٥٢.

(٢) الشعاعات، ص ٦٣٥.

(٣) الكلمات، ص ٣٥٤.

القائم بحق الأمانة. وقد سلف في بيان "الإنسانية الحقة" من النصوص ما يبينه، نقتصر منها هنا على قوله: "فالإنسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح إنسانا حقا، ويظهر أنه "في أحسن تقويم"؛ فيصير بيُمن الإيمان، وبركته لائقا للأمانة الكبرى، وخليفة أمينا على الأرض".[1]

- الإنسان الكامل:

أما الإنسان الكامل: فهو المسلم البالغ مقام الولاية؛ بخوضه بحر المعرفة القدسية، القائمة على الإيمان التحقيقي.

وهذا التعريف "للإنسان الكامل" إنما ركبناه للنورسي من عدة نصوص من أقواله، منها قوله: "للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل: وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية، التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق، والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام، لا صورتيهما. ثم أن يكون الإنسان عبدا خالصا لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلا عن الكائنات الحية، ووليا لله وخليلا له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي أحسن تقويم حقا، فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة. وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا، والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية، بل الدخول فيها".[2] وإنما يكون ذلك كله بالسير في طريق اكتساب المعرفة القدسية النابعة من الإيمان التحقيقي، وذلك قوله: "ذروة الكمال الإنساني: إنما هو في الإيمان والمعرفة القدسية، السامية، المفصلة، والمبرهنة، النابعة من الإيمان التحقيقي!".[3]

---

(١) الكلمات، ص ٣٧٣.

(٢) المكتوبات، ص ٥٩٣.

(٣) الملاحق، ص ٢٧٨.

ومن هنا كان الإنسان الكامل يوظف كل طاقاته الفطرية، وكل استعداداته التفكرية في السير إلى الله، مكتسبا ما استطاع من منازل المعرفة بالله التي هي غاية المعرفة القدسية، فلا يترك الإنسان الكامل شيئا من لطائفه الروحية والنفسية؛ إلا وظفها في هذا الطريق. ومن هنا كان الصحابة الكرام هم كُمّل الأولياء، من حيث إنهم فرغوا كل طاقاتهم فعلا لله الواحد الأحد، وكانوا بذلك أعلم الخلق -بعد الأنبياء- بالله ﷻ. وكانوا نماذج الإنسان الكامل حقا. قال بديع الزمان: "للإنسان لطائف كثيرة جدا، كالقلب، منها العقل والروح والسر. كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة، ومأمورة للقيام بعمل خاص بها. فالإنسان الكامل: هو -كالصحابة الكرام- يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس، وهو عبادة الله. فيسوق القلبُ -كالقائد- كل لطيفة منها، ويوجهها نحو الحقيقة، بطريق عبودية خاص بها. عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنودا في ركب عظيم، وفي ميدان واسع فسيح، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم"؛[1] ولذلك كان "الصحابة الكرام هم في قمة الكمال الإنساني، حيث إن التحول العظيم الذي أحدثه الإسلام في مجرى الحياة في ذلك الوقت، سواء في المجتمع أو في الفرد؛ قد أبرز جمال الخير والحق، وأظهر نصاعتهما الباهرة!".[2]

- السيماء المعنوية، أو السيماء المعنوي، سيماء الماهية المعنوية الإنسانية:

السيماء المعنوية للإنسان، أو سيماء الماهية المعنوية الإنسانية: هي تجليات الإعجاز الإلهي في خلق الملامح المعنوية للشخصية الإنسانية،

---

(١) الكلمات، ص ٥٨٢.

(٢) الكلمات، ص ٥٧٤.

واستعداداتها الفطرية المتميزة، على المستوى النفسي الخاص. يقول بديع الزمان: "ومثلما نشاهد على وجه الأرض آية الأحدية، وسمتها، وختم الرحمة وطابعها، فإن على سيماء الماهية المعنوية الإنسانية أيضا طابع الرحمة (...) فيا أيها الإنسان! إن الذي وهب لك هذه السيماء المعنوية، ووضع عليها الرحمة، وختمها بختم الأحدية؛ أمن الممكن أن يتركك سدى؟"[1] ثم شرع في بيان المقصود المعنوي بهذا المصطلح؛ حتى لا ينصرف إلى الجانب الحسي المادي، أي الملامح الخارجية الشكلية. إذ المقصود هنا أساسا إنما هو الطابع الخاص الذي فطر الله عليه كل إنسان فكان بذلك فريد شخصه. قال رحمه الله: "معرفة جنس الجنين في رحم الأم بأشعة "رونتكن"، هذه المعرفة لا تنافي قطعا ما تفيده الآية الكريمة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾(لقمان:٣٤) من معنى الغيب؛ لأن المراد من العلم المذكور فيها لا ينحصر في ذكورة الجنين وأنوثته، وإنما المراد منه معرفة الاستعدادات البديعة الخاصة بذلك الطفل، والتي هي مبادئ المقدرات الحياتية (...) فكيف إذن يمكن كشف السيماء المعنوية في استعداداته وقابلياته التي هي خارقة بمئات الألوف من المرات عن ملامح الوجه؟".[2]

ومن هنا انتقد على المتصوفة فهمهم الحرفي للنصوص الدينية، الدالة على هذا المعنى، مبينا دلالتها النفسانية. قال: "لقد ورد في حديث شريف "أن الله خلق آدم على صورة الرحمن" أو كما قال ﷺ.[3] فَسّرَ قِسْمٌ من أهل الطرق الصوفية هذا الحديث الشريف تفسيرا عجيبا لا يليق بالعقائد

---

(١) اللمعات، ص ١٥٠.

(٢) اللمعات، ص ١٦٩.

(٣) رواه الطبراني في الكبير، ٤٣٠/١٢ وقال ابن حجر: رجاله ثقات، فتح الباري: ١٨٣/٥، لكن الهيثمي ضعفه في مجمع الزوائد: ١٠٦/٨. والمحفوظ هو قوله ﷺ: "إن الله خلق آدم على صورته" متفق عليه.

الإيمانية، ولا ينسجم معها، بل بلغ ببعض من أهل العشق أن نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرتهم إلى صورة الرحمن! (...) ولهذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تظهر تجلي اسم الله "الرحمن" إظهارا تاما".[1]

خلاصة

قد تبين إذن؛ أن الهوية الكونية للإنسان عند النورسي، هي المعبر الأساس؛ لفهم الذات، وبفهم الذات يمكن فهم وظائفها الوجودية؛ انطلاقا من أكبر الكليات؛ حتى أصغر الجزئيات. وقد تبين أن القرآن الكريم هو الأساس في تحقيق هذه الرؤية، لدى بديع الزمان. ذلك أن القرآن الذي هو كلام رب العالمين؛ إنما هو كتاب كوني؛ ومن هنا كان عرضه لمفهوم الإنسان في السياق الكوني أيضا. ولذلك يمكن القول: إن "كونية الإنسان" إنما هي "كونية قرآنية".

إن معنى "الكونية القرآنية" هو من كون القرآن "كلام الله باعتباره رب العالمين". فالربوبية قاضية على كل معاني الشمول والامتلاك والسلطنة! ذلك أن "القرآن" من حيث هو كلام رب العالمين، متضمن لمعنى الربوبية، الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهرا. كما أن الكائنات -من خلاله- تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقها، منجذبة إلى نوره تعالى. وعلى رأسها الإنسان، المخاطب الأول بالتكليف الإلهي الكوني الشامل الجامع. أي من حيث إن "الله سبحانه خلق الإنسان، وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم"[2] وبهذا الاعتبار جاء القرآن

---

(١) اللمعات، ص ١٥٣.

(٢) إشارات الإعجاز، ص ٢٧.

فيه "كل شيء"، ويتحدث عن "كل شيء"! إذ كان خطابه للإنسان خطابا كونيا، أو كما قال بديع الزمان: "فكأن القرآن المنزل عليه ﷺ قراءة لآيات الكائنات".[1]

والخلاصة أن النظر الكوني إلى الماهيات، لا يتأتى إلا بالقرآن، ولا يكون إلا عن تجربة وجدانية، متدبرة لكتاب الله ﷻ. وذلك ما ألزم الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي به نفسه؛ فكان خير خادم للقرآن في هذا العصر . فرحمه الله رحمة واسعة، ما دام القرآن في الوجود يتلى بأفواه الصالحين، ويرتل من حناجر الذاكرين، بين ناشئة الليل وسبحات النهار.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) اللمعات، ص ٤٩٨.